بِحار المشاعر السّبعة

اســــم الكتـــــاب: بِحـــار المشـــــاعر الســـّبعة

التــأليـــــــــف: أوكفيـــل عبـــــد الحكـــــيم

نـــوع العمــــل: روايـــــــــــــــــــــــة

تــدقيق وإخــراج فنــي: سالم عبد المعـز سـواح (عمـرو سـواح)

رقــــم الإيــــداع: 2021 / 30445

الترقـــيم الـــــدولي: 978-977-835-285-6

النـــــــــاشر: دار زحمة كُتَّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@gmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

بِحار المشاعر السّبعة

رواية

أوكفيل عبد الحكيم

إهداء

لكلّ من عاش منتقمًا من نفسه، مانعًا إيّاها نعمة الإحساس، فرصة تذوّق الحزن والسّعادة، الألم والأمل، ذاك الذي ظنّ يقينا أنّ المشاعر السّاكنة فيه سبب ضعفه وهوانه، العقبة أمام نجاحه ...

هذه القصّة بين يديك، اقرأها ثمّ تفكّر ... بعدها اسأل نفسك هل أنت أنت دون مشاعر ؟

أيمكنك بالفعل العيش والمضيّ قُدما في حياتك لغاية طرقك الباب الأخير دون إحساس بنفسك أو غيرك ؟

أهي العقبة ؟

آكانت ولازالت ؟

حقًّا ؟ ودون كذب ؟

المقدمة

مع أنّي أكره هذا "العالم" كرهًا لا يجاريني فيه أحد، غير أنّه أبى إلاّ أن يمزجني مع غيري من أمثالي الذين أكنّ لهم مقتًا عجيبًا دون سقف يحدّه، هؤلاء البشر الذين لا نفع ولا قيمة لهم، مضطرّ أنا لأن أعيش وأحيا في كوكب يجمعني عنوة بهم.

أنا منهم، من بني جنس البشر، غير أنّني لم أختر ذلك وكنت كما أنا الآن وسأظلّ إلى أن أنتهي، حتميّة لا مفرّ منها، غير راضٍ بما قدّره الله؟ معترض أنا على حكمه وقضائه؟ لا حاشا ولله، لكن وسط هذا الكلّ ... هؤلاء الذين يأكلون، يشربون ويتكاثرون وهم سعداء مطمئنّون، لا أظنّني قادرًا على الاستمرار...

لماذا؟

معظمهم لا يأبه لما يحدث في هذا الزّمن، في هذا العالم الذي أهلكته الحروب والأمراض، يسألني بعضهم: ألا تشعر بالسّعادة إن كان لها داعٍ؟ بالحُزن إن غزا؟ بالألم إن رسا؟ فأعجب من قولهم وجرأة سؤالهم، ألم يكونوا من قبل غير آبهين بما حصل ويحصل؟ أليسوا من بردت قلوبهم وانحرفوا فضلّوا وأضلّوا؟

مع ذلك أجيبهم: كففت عن الشّعور إن كنتُ أصلا أشعر، فما الفائدة من الإحساس بالسّعادة إن لم تدُم؟ ما الذي سأجنيه إن أحسست بالألم وأنا عاجز عن تغيير الواقع الذي ولّده بآخر أحسن منه؟ ما النّفع من كلّ تلك الأحاسيس والمشاعر وهي في الأصل مجرّد نسمات باردة –أو حارّة- زائلة لا

تُؤثّر ولا تُغيّر، وخصوصا لا تدوم ...

البرد؟ الجوع؟ العطش؟ كلّها وغيرها مجرّد ردّات فعل طبيعيّة بدائيّة لحاجة أو نقص، كما الحبّ والكره، الحنان والقسوة ...

الآن بات كلّ أمر مدروس ومُخطّط له، عصر التّكنولوجيا، الآلات والإنسان الآليّ، هي احتمالات وحسابات توصلنا إلى ما ابتغينا، ما حاجتنا اليوم لتلك المشاعر وقد تخلّينا عنها طواعية في واقع أوجدناه وأردناه أن يكون ماديًّا؟

الواقع لا يعبّر عن الحقيقة؟ بل الواقع هو الحقيقة لأنّنا لا نعيش غيره.

الجيل الأوّل، الجيل الحالم العاشق كما وصفه بعض الحمقى هو جيل عاش الكذب حتّى أردته الحياة قتيل أحلامه ...

أمّا أنا وإن كنت فريدًا متفرّدًا، لازلت أعتبر المشاعر عائقًا رهيبًا تجعل الإنسان رهيفًا ضعيفًا تذروه الرّياح أينما هبّت، تكفيه -ذاك الحسّاس- بعض الكلمات ليتأثّر، فيتزعزع أساسه ويهتزّ بنيانه، والنّتيجة أنّ ذاك التأثّر لا ولن يأتيَ بخير اليوم أو غدًا.

لمَ لا نفهم؟ لمَ العناد ونحن ندرك تمام الإدراك أنّ الأحاسيس تجعلنا نعيش اللاّواقع، خيال زائل، هي امتحان لنا جعلها الله فينا اختبارا وجب خوضه وعقبةً لزم تجاوزها حتّى نعيش بالفعل كبشر عقلاء.

بشر لا يتأثّرون، لا يهتزّون، لا يتردّدون ويقومون بواجباتهم على أكمل وجه، يأخذون حقوقهم كاملة، هذا ما يسمّى نظامًا، هكذا تكون العدالة.

عماد ٢٠ سنة، طالب جامعيّ.

*****

الفصل الأوّل

فرح وحزن

نهض باكرًا كعادته غير مُريد، جرّ رجليه جرًّا من نعاس لم يحرّره، اغتسل على أمل الاستيقاظ دون جدوى، "لماذا كلّ هذا العذاب؟" كان يكرّرها كلّ يوم كان له موعد في جامعته، موعد مع التّفاهة وهدر الوقت.

"... جامعة بالاسم فقط، لا فائدة منها ومن فيها، أساتذة وطلاّب، كلّهم في الهراء ملوك سواء، لا يمتاز أحدهم إلاّ في الحمق والغباء، وإن رأوْا أحدا أنّه بالفعل أخذ حظّ السّبق إلى ما لا فائدة ترجى منه تسابقوا ليلحقوا به، أغلبهم -هؤلاء الشّباب- ضائعون بين أحلام المواعدة الكاذبة والقصص الرّومانسية الخياليّة، يملؤون بها كتب أقدارهم الفارغة من أيّ دلالة، المشتاقة لأيّ معنى، يمرّ عليهم الوقت وهم في غفلة، لا يجدون نصحًا من هؤلاء الذين سمّوْا أنفسهم دكاترة، يجرون خلف الأرداف والنّهود وقد هاج على رؤوسهم الشّيب وماج، بُغيتهم تمضية الوقت واللّهو واللّعب، في المقابل نقاط زائدة وعلامات مُبهرة تأخذها فلانة ذات القوام الممشوق والوجه المعشوق، أو فلان ابن فلان لأنّه له علاقة مع فلان أخ فلان، فتكثر هاته الميكروبات بتوالُد المعارف والصّداقات، وأيُّ صداقات؟ مجرّد علاقات قمّتها مصلحة متبادلة وأموال متداولة، تزيد مع طول سلسلة المستفيدين وتغافل المسؤولين ...".

" العلم؟ هذا المسكين الذي لا مكان له هنا، في أفضل حالاته منقوص مكسور، وإن جُبر بات غير مفهوم لا ظلّ له في الواقع ولا أثر له في الحياة".

كان حديث نفسه الذي كرّره بعدد الأنفاس ...

" لماذا أستمرّ في الذّهاب إلى هذا الجحيم؟ فقط لأنتقل إلى السّنة الموالية؟ وبعد؟ ها قد أخذت الشّهادة وتخرّجت، كيف سيكون مصيري في خضمّ فوضى هذا المجتمع الذي لا أحتمله ولا يحتملُني؟ لن أستطيع التأقلُم أبدًا مع هؤلاء، محال أن أتوظّف وأتقاسم ساعات يومي مع آخرين، أنا بذاتي لا زلت أجهل نفسي وما تريد فكيف بي أفتح ذراعيّ لمستقبل أشاركه معهم؟ لماذا أصلا أنظر للعلم على أنّه مجرّد طريق لوظيفة؟ لابدّ وانّها ترسّبات بحر من الأفكار والمعتقدات الخاطئة المجانبة للحقيقة والتي تأثّرت بها عن غير قصد، يحاولون برمجتنا ليتحكّموا فينا بعد تحويلنا لكائنات سجنها الغباء وحريّتها التّبعيّة، عليّ أن أتطهّر وبسرعة من هذا الدّرن وإلاّ تمكّن منّي كما تمكّن منهم فأغرقهم جميعًا في ضلالة لا زالوا فرحين بها عن جهل".

" لماذا أبذل جهدا إذن في أمر لا يفيد؟ أليس الأحرى أن أوظّف هاته الطّاقة فقط حيث يلزم؟ إنّه الواقع العفن الذي يربطنا به سواء شئنا أم أبينا، فإذا أردنا الانفلات منه زادت غطرسته وطفر عناده، وبذلك كبّلنا تكبيلا تتلاشى في سلاسله إرادتنا، آمالنا في العيش كبشر أحرار".

هذا كلّه قبل أن يجلس إلى مائدة الفطور مكرها مع أمّه وأبيه، فإذا جلس اكتفى بـ "صباح الخير" وقد أخذت منه الجهد الجهيد، لم يحفل بهما اليوم كما كان الأمر في الأمس، ونفس الأمر منذ ثلاث سنوات، إلاّ انّه اشتدّ

وزاد، فلم يعُد "عماد" ذاك الشّاب الآمل في الحياة، المبتسم على الدّوام، بات أكثر انطواءً من ذي قبل، مزاجه معكّر على الدّوام، حديثه مع والديه قليل فما بالك مع غيرهما من الأغراب، شابٌّ في العشرين بجلد شيخ في السّبعين، صامت مكتئب، لا رغبة له في شيء ...

هذه نظرات الأب السّريعة صوّبها نحوه علّها تسرق ابتسامة أضاعت طريقها من هذا الوجه العابس، كالعادة، ولا ردّة فعل.

" هذا الولد كالصّنم الأصمّ، لا يشعر، انحصرت مهمّته في هاته الدّنيا على البقاء حيًّا وهذا بذاته إنجاز، أخشى أن ينسى يومًا كيف يتنفّس وإذا به يجد نفسه في العالم الآخر".

قالها أبوه وولده يرتشف القهوة ببطء شديد، أمّه على يساره جالسة وعلى وجهها حزن بادٍ شقّ فيه بعمق، أخاديد واضحة وسواد تحت عينين منتفختين أثقلتهما الحيرة وأتعبهما التّفكير، لم تذق نعمة الرّاحة وحلاوة النّوم منذ مدّة، منعها الإرهاق حتّى من رفع فنجانها إلى فمها، كلّ ذلك بسبب "عماد".

أكمل الشّاب فطور الصّباح ونهض، دون كلمة، أخذ محفظته وخرج، دون توديع أغلق الباب خلفه، ترك والديه يتابعانه من بعيد، عاجزان عن الكلام.

بعد لحظات:

" ألن تقول شيئا؟ أعجبك أمر هذا الولد؟".

وضع "خالد" جريدته على الطّاولة ونزع نظّاراته، تمعّن في زوجته

المغبونة:

" وماذا تريديني أن أفعل؟ أو بالأحرى ماذا تريدين أن نفعل أكثر ممّا فعلناه من أجله إلى الآن؟".

صمتت "ليلى" برهة ثمّ ردّت:

" حاله تدهورت يا رجُل، صار لا يتكلّم معنا الآن، ألا ترى؟".

" أرى وأسمع، أخذناه لكلّ طبيب نفسانيّ، وكلّ واحد أفضل من الآخر، غير أنّ ولدك أعجزهم عن الوصول إلى العلاج، كلّهم أجمعوا رأيهم على كلمة واحدة: "ساعدوه على استرجاع إنسانيّته الضّائعة، على أن يكون إنسانًا بين النّاس، فردًا من هذا المجتمع، لا تضغطوا عليه ولا تجبروه على شيء، فالصّدمة التّي تعرّض لها منذ ثلاث سنوات كانت قويّة، عميقة، لا زال أثرها إلى اليوم"، هكذا قالوا أليس كذلك؟".

" نعم ... قالوا كذلك".

" ونحن جاريناه وداريناه، لكن ماذا نفعل؟ بات يفضّل الوحدة والانعزال رغم كلّ محاولاتنا لإعادة دمجه معنا ومع الغير، الغريب أنّه لا زال يدرس ويتابع، هذا بذاته معجزة، فلا تحاولي معه أكثر من فضلك، وإلاّ ترك الجامعة وهرب هاته المرّة".

" يعني قلقك انحصر فقط في تركه الجامعة؟"

" بل أنا قلق عليه في كلّ ما حصل ويحصل له، وربّما أكثر منك، غير أنّي لا أظهر ذلك ولا أجعله يتوتّر، ألا يكفينا ما نحن عليه يا "ليلى"؟".

" والحلّ؟".

" الحلّ بيده، نستمرّ معه كما بدأنا ونرى".

" وما قولك فيما قاله؟".

يصمت هنيهة ثمّ يردّ:

" ماذا قال؟".

" ذاك اليوم".

" وماذا قال ذاك اليوم؟".

" أنّه لا وجود للأحاسيس والمشاعر، هي مجرّد ردّات فعل ميكانيكيّة، كيميائيّة، أو لا أدري ماذا قاله ذاك الحين".

بقي "خالد" صامتا لحظات.

" أليس الأمر غريبًا؟".

" هو كذلك ...".

" إذن؟".

" نصبر أيّاما ثمّ نطلب منه زيارة طبيب نفسانيّ آخر لنأخذ برأيه".

" وإن امتنع عن الذّهاب؟".

" نجبره".

" وكيف؟".

انفعل "خالد" حينها وثار:

" حينها نتكلّم، لقد نغّصت عليّ يومي بهاته الأسئلة التي تعود وتتكرّر".

سكتت حينها ولم تزد، لم يكن بوسعها إلاّ أن تشاركه همّها علّه يخفّف

عنها بعض الذي اعتراها من خوف على ابنها، ويجدا معا السّبيل إلى حلّ هاته المشكلة التي طال أمدها، إلاّ أنّ الردّ أبكمها في لحظة.

إنّ الولد إذا أصابه من الدّنيا مسّ باتت الأمّ الممسوس، وهذا ما يفسّر قلق " ليلى" على ولدها وحُقّ لها أن تقلق، "خالد" الذي يخفي خوفه من تدهور وضع "عماد" يجاهد نفسه لستر ضعفه وتردّده، كلمات ينطقها لسانه غير مقتنع بها ولا مصدّق لها:

" سنجد حلاّ لا تقلقي".

قالها نادما عمّا تفوّه به منذ قليل، حاول مواساتها كي لا يزيد حزنها واكتئابها، وهو المكتئب المحزون.

" حينما يعود أتكلّم معه جديًّا، سأقنعه بمرافقتي إلى طبيب آخر صاحب صنعة يُؤتمن السرّ عنده".

بدا فجر الأمل خجولا على محيّا ليلى، في انتظار شروق شمس الفرح بمعافاة ولدها.

أمّا "عماد" فماشٍ في طريق ملأه النّاس بأجسادهم المتلاصقة، في شارع ضيّق تتشابك فيه العمارات والمنازل، اختلطت ألوانهم وروائحهم حتّى لا تكاد تفرّق بين الرّجل والمرأة، الكبير والصّغير، " على كلّ حتّى وإن لم يختلطوا فلن يكون هناك فرق كبير بين النّساء والرّجال في هذا الزّمن"، قالها "عماد" في نفسه ساخرًا من هؤلاء الشّباب الذين تبادلوا الأدوار في لباسهم وتصرّفاتهم، ذكوا باتوا إناثا وإناث زاحموا الذّكور، اعتبره مجتمعًا ساهيًا واهيًا يعيش في عشوائيّة دائمة متكرّرة، يُوجد المشاكل ويشتكي منها، مجتمع ينتقد نفسه

سلبا ويعجز عن المبادرة، يهرب من مسؤوليّاته ولا يتحمّلها، يتغنّى بالتّسامح والحبّ وبكلّ المشاعر الطيّبة غير الموجودة ليصير إلى الإنسانيّة وما هو ببالغها، " أصلا ما معنى إنسانيّة؟"، سأل نفسه للمرّة الألف.

" كم أكره وجودي بينكم، وكم أمقت انتمائي لهذه المدينة" ردّدها متحاشيًا أجساد النّاس.

أسرع الخطى وتجاوز الجموع الغفيرة الذّاهبة والآتية بجسده النّحيف وسرعته الكبيرة، فما بان منه غير شعره المنفوخ الذي ذرته الرّياح يمينا وشمالا، هنا وهناك ككرة تقاذفتها أقدام اللاّعبين، لكن ما فتئ أن قلّت سرعته وتباطأت خطواته، فكثافة الجموع غلبت في الأخير، وصار من اللاّزم تغيير السّبيل بآخر، حتّى الخروج إلى الطّريق بات مستحيلا مع تدافع السيّارات والشّاحنات والدرّاجات النّاريّة، " لو حاول أحدهم العبور لتعمّد أحدهم دهسه وجرّه، ولقال إنّ الطّريق حقّه، ينتقم وبيده القانون سلاحًا يشهره بالطّريقة التي يهوى، كذلك يفعل الكبار فوق، فلم لا يقلّدهم الصّغار هنا؟"، قالها "عماد" في نفسه ملتفتًا يمينا وشمالا باحثًا عن مخرج من هذا الفيضان الذي هو آخذه لا محالة إلى مصبّه لو رمى بنفسه فيه، وفي لحظة بانت فرجة في جدار الأجساد هذا فقفز قفزة نقلته إلى الجهة الأخرى بسرعة، وإذا به يجد نفسه وسط طريق خالية، لم يصدّق ما رآه، لم يتخيّل أنّه سينفذ من خلاله بهاته البساطة، رفع رأسه وفجأة ...

فجأة ...

مخلوق رائع الجمال قبالته، شابّة بارعة الحُسن جرت نحوه، السّبب؟

ما دعاها لذلك؟ بانت مذعورة خائفة، صرخت لكنّه لم يسمعها، فسمعه غاب وذاب، عيناه فقط تابعتا، وكادتا أن لا تتابع، هاته الحركات التي بدت متباطئة كانت ترجمة لعقله الذي لم يساير الواقع، ثوبها الأبيض الجميل، شعرها الذهبيّ الطّويل المتطاير، عيناها الزّرقاوان وكأنّهما قمران توأم، كلّ هذا الضّياء وهذا البهاء في امرأة؟

" بين كلّ هؤلاء الـ ------- أيمكن أن يحيى ملكٌ كريم؟".

سأل نفسه مبهورا، في تلك اللّحظة ودون سابق إنذار قفزت عليه صارخة:

" انتبه".

أنتبه؟ لأيّ شيء؟ وهل بوسعي الآن ذلك؟ أن أنتبه لغيرك؟

مع القفزة تلك مدّت يديها نحو صدره دافعة إيّاه للخلف، أمّا هو فغاب أكثر، أخذه عطرها لدنيا ثانية.

نعم أخذه وحجب عنه المصيبة الآتية، لم يسمع منبّه الشّاحنة العملاقة التي صرخت فرجّت المدينة، لم يحسّ بذاك الوحش وقد زلزل الأرض فانتفض كلّ مخلوق، حتّى السّائق خج من النّافذة الجانبيّة صارخًا ملوّحا بيده:

" ابتعدا عن الطّريق ... ابتعدا عن الطّريق".

فات الأوان.

في اللّحظة التي استدار فيها "عماد" ورأى الشّاحنة قاب قوسين او أدنى منه ومن الفتاة نطق كلمته الأخيرة مستسلمًا عن رضا للقدر المحتوم:

" إنّها النّهاية".

صرخت الفتاة صرخةً مدوّية بلغت كلّ الأرواح، أعقبتها ظلمة حالكة ...

غريب ...

لا زال هنا ...

لم يحسّ بالصّدمة، ولم يشعر بألمها، فراغ، فراغ أسود لا حدود له، لا وجود لقطة ضوء في هذا المكان، ربّما لم يمت بعد، أو مات في انتظار الآتي.

" ماذا يحدث؟ أين أنا؟ ماذا حصل؟".

إنّه يرى ويسمع، التفت فلم يجد الفتاة، أهو في الدّنيا أم على أبواب الآخرة؟ ألا يوجد أحد في هذا الفضاء الموحش؟ أمن مغيث؟

شعر بالخوف رغم تنكّره له، وفي تلك اللّحظة انقلب الفضاء ذاك غير الذي كان، وجد نفسه وسط صحراء، نعم صحراء بكثبان رمليّة لامست السّماء، الحرّ قاتل، وهاته الشّمس تكاد تمسح بيدها على رأسه، ساطعة قويّة، اصفرّ شعاعها من بياضه، ثمّ احمرّ بعد اصفراره، تلك الرّمال برّاقة ذهبيّة، ساخنة ساخنة، لا شيئ على مدّ البصر سوى سراب يتراقص على أنغام الضّياع، يُمنّي أمانيّ لن تتحقّق.

" ما الذي أتى بي إلى هنا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان؟ صحراء؟ وصحراء أيضا؟".

همّ بالخطوة الأولى وإذا بقيد في قدمه به سلسلة امتدّت للخلف، استغرب فتابع السّلسلة تلك إلى أن وصلت إلى قدم الفتاة التي دفعته قبلا، واقفة في ذهول تنظر فيه غير مدكة لما يحصل، ما الذي تفعله هنا معه؟

" أنتِ؟".

" أنتَ أيضا؟".

" لم أفهم، لماذا أنت هنا معي في هذا المكان؟".

" حاولت إنقاذك من الشّاحنة التي على ما يبدو صدمتنا نحن الاثنين وأرسلتنا إلى هذا المكان بطريقة ما، ويا ليتني لم أفعل".

" يا ليتك لم تفعلي؟".

" يا ليتني لم أتدخّل وتركتك تواجه مصيرك وحدك".

استغرب من قولها فردّ عليها:

"وكأنّي من طلبت مساعدتك، ألست أنت من قفز عليّ؟".

" وهل أترك إنسانًا يموت أمامي وأنا أنظر؟".

" لم يفعلها غيرك".

" غير أنّني فعلتها، تحرّك جسدي وحده نحوك".

نظر فيها مندهشا ... لم يتلفّظ بكلمة، هي استدركت وأضافت:

" أقحمت نفسي فيما لا يعنيني، وهاته السّلسلة اللّعينة، حاولت كسرها ولم أستطع".

بماذا تكسرينها ولا وجود لحجر واحد هنا".

" ضربت الحديد بالحديد يا عبقريّ زمانه".

سكت وبقي ينظر فيها، أطال هاته المرّة ونسي نفسه في جمالها الأخّاذ:

" لماذا تنظر فيّ هكذا؟".

ردّ مرتبكا:

" لا شيء".

" لا أنت نجوت ولا أنا أنقذتك، صرنا اثنين في هذا المكان اللّعين الذي لا أدري كيف وصلنا إليه".

" بالرّغم من ذلك، ورغم صعوبة الأمر بالنّسبة لي، أنا ممتنّ لك، ربّما أنت من القلائل الذين لازالوا يحتفظون ببعض الإنسانيّة".

قالها بهدوء وبصوت بالكاد يُسمع، بدت على وجهه علامات حزن لم تفهمها، اندهشت من كلامه وبقيت تنظر فيه صامتة، في تلك اللّحظة خمدت ثورتها بسرعة، ولّدت كلماته نوعًا من الحساسيّة لديها غريبة، بسرعة تجاوزت الموضوع:

" والآن ماذا نفعل؟".

بدأ حرّ الصّحراء يؤثّر فيّ، أحسّ بالعطش ولا نملك شيئا نطفئ به الظمأ ونقتل به الجوع، الحلّ الوحيد هو المشي والبحث عن مخبأ".

لازالت واقفة تنظر فيه:

" أنحن على قيد الحياة أم ...".

" الصّراحة لا أعلم".

" لا تعلم؟ ألا يهمّك إن كنّا حيّين أم ميّتين؟".

" في الوقت الحاليّ علينا الهروب من هاته الشّمس التي ستهلكنا".

" لو كنّا ميّتين فالآن موعدنا مع منكر ونكير أليس كذلك؟ في رأيك أنت،

أهكذا يكون العالم في مقام السّؤال؟ حتى وإن متنا ودفنونا أهذا ما يكون في القبر؟".

" لا أظنّ".

" إذن؟ ماذا حصل لنا بعدما صدمتنا الشّاحنة؟".

" الصّراحة؟ لايهمّني ما حصل بنا بقدر ما أنا حريص الآن على هروبي من هذا الحرّ الذي سيقتلني مرّة ثانية إن متّ بالفعل في الأولى".

صُعقت الفتاة ممّا سمعته توًّا، كيف يكون غير مبالٍ وغير مهتمّ حتّى لحياته إلى هاته الدّرجة، أفعلا قالها وقصد ذلك؟

" تمزح أليس كذلك؟".

" لست من هواة الكلام، لنسر ولا نضيّع الوقت، لربّما وجدنا منفذا أو مخرجًا من هذا المكان، أو على الأقلّ مخبأً نرتاح فيه".

لم تجد بما تردّ عليه، يبدو صادقًا في كلامه، إنّه كذلك نعم، لا يبدو ممتنًّا ولا شاكرًا، غير آبهٍ بالتّضحية التي قامت بها الفتاة من أجله، إنّه بارد، بارد ببرودة جليد قاسٍ.

سار وسارت خلفه، تفحّصته، ذاك الشّعر غلب فجعل رأسه كبيرا بشكل غير معقول، نحيف نحافة العود، طويل طول السلّم، شبّهته بشجرة تمشي في الصّحراء، إضافة إلى أنّه أسمر سمرة واضحة فكان لونه كلون جذع الشّجرة التي تخيّلتها.

" شجرة بنظّارات كبيرة".

قالتها بصوت مرتفع غي متعمّدة وكانت تكلّم نفسها، فسمعها واستدار:

" ماذا؟".

" لا شيء، كنت أكلّم نفسي فقط".

تمعّنت في وجهه جيّدا هاته المرّة، يا لقبحه، وهاته النّظرة التي أرسلها من عينيه الجاحظتين، كم هي مخيفة، ذاك الأنف الكبير الحامل لتلك النظّارات، واللّحية التي أبت الظّهور إلاّ قليلا زادته بشاعة، أشاحت بوجهها عنه، أمّا هو فخاض فيها مرّة أخرى فتفرّقت به السّبل في تفاصيل وجهها الوضّاء وتضاريس جسدها الفاتن.

" أسألك مرّة أخرى لكن اصدقني القول".

" ماذا تريدين؟".

" أحقّا لا تأبه إن كنت حيًّا أو ميّتًا؟".

" وما الفارق وقد متّ فعلا قبل هذا اليوم".

شخص بصرها وصمتت، هناك أمر، هذا الشّاب الذي يبدو غير آبه لنفسه وغيره يخفي سرًّا، هذا ما أحسّت به الفتاة وهي تسمع ردّه المتثاقل على سؤالها، غير أنّها لم تتجرّأ أن تسأله عمّا حلّ به، ليس الوقت المناسب أصلا.

تمشّيا على رمال حارقة ملتهبة تشوي الأقدام، تغوص فيها فيشتدّ الألم ومعه التّعب، هل يحسّ الميّت بكلّ هاته الآلام؟ لا يدريان، ما هو مؤكّد هو أنّ أمامهما أميال من رمال مفروشة تعدهما عذاب الهون.

تصبّبا عرقًا فاغتسلا بمائهما المالح وتبلّلت ملابسهما وكأنّما أصابهما وابل، تثاقلت الخطى تحت شمس لا ترحم، إرهاق شديد حتّى باتت الأنفاس

تُلتقط من خرم إبرة، استسلما لحظتها ورفعا الرّاية البيضاء، لكن حينا وهما على أبواب اليأس يطرقانه، سقطت من السّماء قنّينة على رأس "عماد" كادت تفقده وعيه:

" اللّعنة ما هذا؟".

" من أين أتت هاته القنّينة؟".

و ما أدراني؟ كادت تودي بي".

"سقطت من السّماء".

" والله لا أفهم، قوارير تسقط هكذا من العدم".

" لا وجود للعدم".

أسرعت الفتاة والتقطتها، فتحتها وإذا برسالة ورقيّة ملفوفة أخرجتها، فورا بدأت قراءتها:

" إنّها باللّغة العربيّة".

" المهمّ ماذا فيها؟".

" إن أردتم الخروج من هذا العالم الذي سجنكم عليكم بالعمالقة، اهزموهم، كونوا النّقيض الذي ينهي وجودهم، ثمّ بعد كلّ فوز اجمعوا شيئا من ماء البحر المتفجّر في القنّينة، فإذا أخذتم من سبعة أبحر اختلطت وامتزجت مياهها فاستحالت لونا أبيضا بياض الأمل في نجاتكم، أعطوا القنّينة للملكة العجوز لتغتسل فتعود للحياة بعد الموت، حينها فقط تعودون لدنياكم".

بقي عماد ينظر في الفتاة وهي بدورها تنظر فيه دون استيعاب وبدهشة ظاهرة على محيّاها.

" ما هذا الهراء أيضا؟".

" هذا ما كُتب في الّرسالة".

" وما أداكِ أنّها خزعبلات مجنون كتبها رسالة ووضعها في قنّينة على أكل أن يلتقطها أحدهم ويقرأها فيصدّقها".

" ويرميها من السّماء لأنّه معلّق فيها؟ وتماما على رأسك أنت أليس كذلك؟".

سكت "عماد" ثمّ أردف:

" وما هو تفسيرك أنت لكلّ هذا اللّغط؟".

" امتحان، اختبار، وهذا الذي في الرّسالة لغز علينا حلّه للخروج من هنا".

" أوَ صدّقتِ ما جاء في هذه الرّسالة؟".

" نعم صدّقت لأنّه ليس لديّ خيار آخر، وإن كان لك اقتراح فتفضّل به حضرة المفكّر".

أسكتته مرّة أخرى، تسرّعه في الكلام وضعه في موقف حرج مع الفتاة.

" الخروج من هذا العالم كما جاء في الرّسالة مرادف للعودة إلى الحياة الطّبيعيّة، أتدرك ما معنى ذلك؟".

أطال النّظر فيها ثمّ في الرّسالة:

" منعاه لازلنا على قيد الحياة، يمكننا العودة إلى ما كنّا عليه".

لأوّل مّرة تبتسم، وما أجملها من ابتسامة:

" هذا هو، أخيرا قلت ما يفيد، فكّر مرّة على مرّة فلن يضرّك التّفكير في شيء صدّقني".

ردّ غاضبًا:

" يعني نحن ماذا؟ إن لم نكن ميّتين، ولسنا في واقعنا المعهود، فماذا نكون الآن؟".

همّت بالردّ عليه، وفي نفس اللّحظة اهتزّت الأرض بشكل غير طبيعيّ، بسرعة كشفت الرّمال عن حفرة سوداء عميقة أمامهما، تراجعا سريعا فقد تملّكهما خوف ورعب.

" ماذا يحصل الآن؟".

لا أعلم، يا إلهي ماذا يجري؟".

من تلك الحفرة ظهرت يدان عملاقتان، انغرست تلك الأصابع الضّخمة على حوافّ الحفرة وكأنّها جذور أشجار مليونيّة، ترفع جسمًا استطال إلى السّماء ليقف على قدمين شامخًا كالجبل، مُلقيًا ظلّه على الصّحراء وكأنّه زربيّة سوداء فُرشت فامتدّت امتدادًا حتّى لامست الأفق، مع اعتداله رُجّت الأرض رجًّا وكأنّ بها جنّة، إنّه عملاق ... بالفعل عملاق.

لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل تبعه آخر خارجًا من نفس الحفرة التي خرج منها الأوّل، امتدّ إلى السّماء الزّرقاء كما امتدّ سابقه، استعمر الصّحراء بظلّه أيضا فباتت سوداء مظلمة لم يصدّق الشّابّان ما رأياه،

شخص بصرهما في هذين المخلوقين وجمدا في مكانيهما دون حراك، وكأنّهما تمثالان، صنمان، أو حجران دون حياة، عجز اللّسان عن الكلام وتوقّفت الجوارح عن التّعبير أمام هذا المشهد المهيب.

....

في مكان آخر وفي نفس الوقت، خرج "خالد" والد "عماد" باحثًا عن طبيب نفسيّ باع علّه يجد حلاً لمعضلة ولده.

سأل من وثق فيهم فوجّهوه إلى طبيب يُقال له "إبراهيم النجّار"، عالم بعمله، صاحب باع في المجال، على حسب ما سمع شُفي العديد من المرضى بعد جلسات وفترة علاج وجيزة عنده، والشّفاء بيد الله طبعًا، لهذا أخذ العنوان واتّجه صوبه، أراد أن يراه ويتكلّم معه أوّلا قبل أن يقنع ابنه بالمجيء، أراد أن يشرح له وضع ابنه المعقّد وأنّه حالة استثنائيّة عجز عن حلّ لغزها العديد من الأطبّاء السّابقين.

بحث بحثًا حثيثًا حتّى وجد عنوانه، كان حيًّا حقيرًا وسخًا تراكمت فيه النّفايات وزهت فيه القطط والكلاب الشّاردة، الطّريق التي مشى فيها ضيّقة مظلمة، مرصّعة بألف حفرة، ملوّنة ببقايا الطّعام المتعفّن وأكياس القمامة المرميّة هنا وهناك، الرّائحة نفّاذة ترغمك على غلق أنفك وفمك، ومن لعب دور الهمام المقدام وحاول استنشاق بعض هذا الهواء فالهلاك مصيره.

رغم ذلك أكمل، تجاوز تلك الأكوام بصعوبة إلى أن وصل إلى العمارة المطلوبة، عمارة تئنّ وتشكو ثقل الزّمان وضعف الحيلة، عمارة مستلقية على أخرى تكاد تعانق الأرض، اخترقتها الشّقوق فأخرجت أحشاءها عنوة،

جدرانها سوداء مخدوشة، خضراء تمكّنت منها حشائش وفطريّات غريبة، مظلمة مخيفة، رائحة التّراب الممزوج بالعفن عطّرتها قلبًا وقالبًا، هاته المرّة تردّد في الدّخول، بل ساوره النّدم على قدومه إلى هذا المكان، لكنّه بسرعة عاد واسترجع، فما باليد حيلة، لو جعل الله الشّفاء على يده أيرفض ويعود؟ كلاّ بالطّبع.

صعد الأدراج المهلهلة الصّارخة، تنادي صاعدها ليجهز عليها ويسقطها فيرحمها من هذا العذاب، عذاب الدّوس وتحمّل الأثقال والأوزان على كبر سنّها، في الطّابق الخامس والأخير، أمام الباب الخشبيّ المكسور هو، مصباح بضوئه الأصفر الفاقع أنار بعضا من هاته الظّلمة الحالكة، عكست قطعة معدنيّة ملتصقة بالباب هذا الضّوء الخافت، اسم الطّبيب محفور عليها ورقم هاتفه مخدوش لا يظهر، لا جرس هنا، طرق الباب، لا أحد يفتح، طرقه مرّة ثانية، وثالثة، دون ردّ.

" ما هذا؟ ألا يوجد أحد؟ ربّما لا يعمل اليوم".

في تلك اللّحظة فُتح الباب ... فُرجت.

همّ بالسّلام لكنّه أحجم، فما رآه اللّحظة أبكمه إبكاما، عجوز تقوّس ظهرها بشعرها الأبيض المنتوف المجعّد لامته على طرقه المتكرّر للباب:

" ما هذا؟ ما بك؟ أتريد اقتلاع الباب من مكانه؟".

" عفوًا لكن ... ".

" لكن ماذا؟ لا تربية ولا احترام في هذا الزّمن ".

وجهها مطويّ من شدّة التّجاعيد التي حفرت في وجهها عميقا، تضع

أحمر شفاه وأصباغًا كثيرة على ما بقي في وجنتيها وعلى جفنيها بين الأزرق والأخضر، عيناها غائرتان وشفتاها متدلّيتان، قبيحة قبح الكابوس، لابدّ وأنّها جاوزت التّسعين ولازالت طامعة في الدّنيا، إنّها ترتعش، لم تتوقّف عن الارتعاش منذ فتحها الباب.

" آسف حقًّا إن أثرت الإزعاج".

" بالفعل أثرته، المهمّ ماذا تريد؟".

استغرب "خالد" من سؤالها، ماذا سيفعل شخص أتى عند الطّبيب غير أنّه يريد عيادته أو أخذ موعد؟ الغريب في كلّ هذا لازال واقفا عند الباب، فلم تتركه يدخل.

" أريد الحديث مع الطّبيب في أمر يهمّ ابني، وقد سمعت عن الدّكتور "النجّار" كلّ خير، لهذا ...".

" قاطعته بصوتها المرتعش الحادّ:

" قُل هذا في الأوّل، تريد أخذ موعد، والله أتعبتني بكلامك، تفضّل ادخل، انتظر في القاعة هنا".

دخل "خالد" متردّدا دون أن يردّ عليها، كيف لطبيب أن يكلّف مثل هاته العجوز باستقبال المرضى؟ خصوصا من هم في حالة نفسيّة يرثى لها، جلس على أحد الكراسي الثّلاث المكسورة التي في القاعة، لا أحد، القاعة خالية، ماذا يحدث؟

قلّب بصره وإذا بشباك العنكبوت في الزّوايا تتدلّى إلى أسفل، في السّقف بقع صفراء وبنيّة إثر جفاف مياه الأمطار التي حملت معها التّراب فرسمته

على بياض، تقشّرت الجدران وتعرّت دون خجل، غمِلت وتعفّنت إلى أقصى حدّ، نوافذ القاعة مكسورة، والأرض مشقوقة، صراصير تتسابق على حفر بين الشّقوق لتسكنها، فضيع، مريع، لم يتحمّل ذلك، نهض سريعا وأراد الخروج فوقفت العجوز بينه وبين الباب:

" إلى أين؟".

" غيّرت رأيي، لا أريد أخذ موعد عند هذا الطّبيب، آسف".

" لكن لم نبدأ بعد بالـ..".

قاطعها وراوغها، فتح الباب هاربًا وأغلقه خلفه، تنفّس الصّعداء وحمد الله على نجاته، وإذا به في حجرة الطّبيب، أخطأ الباب ودخل عنده مباشرة.

" اللّعنة عليّ ماذا فعلت؟" قالها في نفسه ناظرا لهذا الطّبيب الذي كان جالسًا مشبّكا أصابعه.

انتابه شعور غريب، خوف وتردّد، لم يستطع "خالد" التقدّم أكثر، هذا الدّيكور شبيه بما رآه توًّا في الخارج، نفس الجدران التي تساقطت قشورها وتصدّع ظاهرها وباطنها، خيوط العنكبوت المتدلّية في كلّ زاوية، المكان مظلم، بارد، مخيف، وكأنّه لقطة من فيلم رعب امتدّت في الزّمن واخترقت النّفس عنوة، سكنتها بالقوّة، ركزّ في الطّبيب الذي لم يحرّك ساكنًا، فإذا هو أصلع بدين، تراخى خدّاه على جانبيْ رقبته، ذابل العينين كبير الشّفتين، على أنفه الدّقيق ثالول ضخم، يشبه كثيرا السّحرة والدجّالين الذين صوّرتهم الأفلام على أنّهم كذلك، الشيء الوحيد الذي لمحه نظيفًا ولائقًا بمقام طبيب هو هذا المكتب الخشبيّ البرّاق، والذي عليه مجموعة كبيرة من قوارير، قوارير

نبيذ ومشروبات كحوليّة.

" لا أصدّق ما أرى، أأنا في حانة أم ماذا؟". سأل الرّجل المسكين نفسه ولا زال ملتصقًا بالباب.

" تفضّل"، بصوت مبحوح دعا الطّبيب "خالدا" ليجلس، ففعل متردّدًا وهو ينظر في تلك القوارير، وكلّما اقترب اشتمّ رائحة الكحول النفّاذة، لم يحتمل ذلك فأخذ الكرسيّ الذي كان أمامه وجرّه عنده وجلس بعيدا عنه، ضحك الطّبيب وقال:

" لا تخف لن ألتهمك".

رأى فيه واستمرّ في لعن اللّحظة التي أتى فيها إلى هذا المكان، لماذا لم يذكر هؤلاء الذين اقترحوا عليه زيارة هذا الطّبيب أنّه مدمن كحول؟ لربّما لو قالوا لما أتى، لو كشفوا له حقيقته لما زاره.

" الموعد تأخذه من السيّدة "فلاح" من فضلك، الدّخول مباشرة عند الطّبيب هكذا غير لائق برجل في مقامك سيّدي الكريم".

" يا سلام، ويعلّمني أيضا كيف أتعامل مع النّاس، والله هزُلت" قالها مرّة أخرى في نفسه والغضب آكله، قرّر الردّ هاته المرّة وعدم السّكوت:

" آسف لكن كادت السيّدة "فلاح" هاته أن تطردني دون معرفة سبب قدومي".

ضحك مرّة أخرى وأردف:

" هذا لأنّها طبّقت تعليماتي فقط، طلبت منها عدم السّماح لأيّ مريض بالدّخول عندي، وأن تحدّد له موعدًا ثمّ تعتذر عنه في وقت لاحق لتغيّره

بآخر، ثمّ تعيد نفس الكرّة، وهكذا دواليك حتّى يملّ المريض ويفقد الأمل ويذهب ليبحث عن طبيب آخر يداويه".

اختلطت الأمور وتشابكت، لم يفهم "خالد" تماما ما قصده هذا الطّبيب ...

" لا تندهش ممّا قلت، فقد فقدت حلاوة العمل في هذا المجال، كلّ يوم نفس الوجوه ونفس الحالات، هذا غارق في مشاكل مع أبيه وأمّه، وآخر لا يعرف كيف يتعامل مع زوجته المسيطرة، ثالث يعيش مشاكل في عمله ورابع يريد أن يهجر بلده، مشاكل لا داع حتّى للتّفكير فيها أو إيجاد حلّ لها لأنّها أصلا جزء من الحياة لا يمكن الاستغناء عنها، إنّها بهارات الطّعام وملحه الذي يعطيها الذّوق، فتُكرم صاحبها بالانتشاء بلذّة العذاب، وإلاّ فما فائدة العيش أصلا إن لم تكن هناك عقبات ومشاكل وضعها القدر ليختبرنا إن صبرنا أم استسلمنا؟".

لا بدّ وانّ هذا الطّبيب مجنون بالفعل، الآن تأكّد بحقّ أنّه ليس في حالته الطّبيعيّة.

" يعني المشاكل والمصائب هي بهارات تعطي ذوقًا فيحيى بها الإنسان حياةً طبيعيّة؟".

" وهو كذلك".

" إن كانت كذلك، فماذا تفعل هاته القوارير على مكتبك إن كنت متحمّلاً لمصائبها ونوازلها ومستمتعًا بها كما أسلفت؟".

" ماذا؟ هاته؟".

" نعم، قوارير النّبيذ والكحول، تشرب لتنسى أليس كذلك؟".

" كلاّ هي مجرّد "مهدّئات" ".

" "مُهدّئات"؟".

" نعم، لكلّ مهدّئاته، أتجرّب؟"، رفع قارورة وقرّبها من "خالد".

" أعوذ بالله من غضب الله، أبعدها عنّي"، صرخ مبتعدًا، ضحك الطّبيب هاته المرّة بصوت أعلى وزاد:

" والله أعجبتني، من حظّي اليوم أنّك دخلت على حين غفلة من أمّي فقليل من استطاعوا تجاوزها".

" ماذا؟ تلك العجوز؟ السيّدة "فلاح"؟ أمّك؟".

" نعم وما العيب في ذلك؟ أرادت العمل معي فقبلت".

" معك حقّ، حتّى يكتمل الجنون".

" لأنّك دخلت سأسمع لك، لمن الموعد؟".

" لي أنا".

" كلاّ ليس لك".

" وكيف علمت؟".

" المرضى عموما يدخلون مباشرة في الموضوع من شدّة الضّغط، فيتكلّمون حتّى دون أن أتيح لهم التّعبير عمّا يخالجهم، كما أنّ حركاتهم وسكناتهم غير، هم مختلفون شكلا ومضمونا عن النّاس العاديّين، ولو بفروق بسيطة، لكنّها في عيني ظاهرة".

بشكل غير متوقّع ارتاح "خالد" لقوله، لربّما يكون الحلّ عنده، فعلى ما يبدو أنّه دقيق النّظر نافذ البصر.

" الأمر متعلّق بولدي".

" لماذا لم يأت معك؟".

" يدرس في الجامعة".

" إذن لماذا لم يأتعوضه؟".

" عُدنا الكثير من الأطبّاء دون جدوى، لم يفد شيء معه ".

" أتفهّم قلقك على ولدك، لكن أريده هو، فهو المعنيّ".

" لو تفهّمت سيّدي لما قلت ما قلته توًّا، إنّه وحيدنا وقرّة أعيننا أنا وأمّه، قبل ثلاث سنوات كان شابًّا عاديًّا ككلّ الشّباب، له أحلام وهوايات، لكن منذ تلك الحادثة تغيّر ولم يعد "عماد" الذّي نعرفه ...".

تتغيّر ملامح الطّبيب ويستشفّ من كلام "خالد" الصّدق فيما قاله، رفع قارورة نبيذ وسكب منها في كأس ثمّ أخذه وارتشف منه.

" من فضلك ... ليس أمامي".

" دونها لا أفكّر، لا تأبه لما أفعل، فقط اروِ لي ما حدث لولدك بالتّفصيل المملّ، فليس لديّ ما أفعله على كلّ حال غير الاستماع إليك".

فرح الأب وبدا ذلك على وجهه، طفق يروي للطّبيب ما حدث بالتّدقيق، ومع كلّ كلمة يفتح معها الطّبيب عينيه أكثر فظهرتا بلونيهما الأخضر الجذّاب، بعد عشرين دقيقة أنهى الأب كلامه، وانتظر ما سيقوله الطّبيب:

" مدهش، ومؤثّر في نفس الوقت، لم أسمع من قبل بقصّة مثل هذه".

" كما قلت لك سيّدي، صار لا يؤمن بالإنسانيّة كما قال، لا يصدّق بوجود الأحاسيس والمشاعر، كلّ ما يشعر به الإنسان هو تحصيل حاصل بالنّسبة له، مجرّد ردّات فعل آليّة أودعها الله في الإنسان تظهر في الوقت المناسب لموقف معيّن مجبر هو على لعبها كدور يتقمّصه بمهارة، رغم أنّه لم يكن يقول ويعتقد هذا من قبل، كما أسلفت، تلك الصّدمة هي السّبب".

وضع " إبراهيم" الكأس من يده، أدخل يده في جيب مئزره الأبيض الممزّق المهترئ، أخرج علبة سجائر، أخذ واحدة وأشعلها.

" أمر طبيعيّ، تتعاطى الكحول فكيف لا تدخّن؟"، قالها في نفسه ناظرا في الطّبيب نظرة انتقاص، نظرة فهمها "إبراهيم" فقال:

" لا تأبه لما أفعل، المهمّ قضيّة ولدك الآن".

" إذن؟".

" سأتكفّل بحالة ولدك، فاليأتني في الوقت الذي يريد إلاّ يوم الجمعة، كما تعرف هو يوم عبادات واجتهاد، كذلك لا تضغط عليه وقل له: إن أردت بقيت ظلّ نفسك، وإن شئت صرت أفضل ممّا تتخيّل".

سكت الوالد برهة ثمّ ابتسم، تبعت تلك الابتسامة دمعة نازلة، إنّها فرحة القبول، دون معرفة ما إذا كان الطّبيب قادرا على إيجاد الحلّ إلاّ أنّ الأمل قائم على كلّ حال، شكر الطّبيب واستأذن فأذن له، وقبل فتح باب الخروج استوقفه:

" ألفيّ دينار جزائري".

" ماذا؟".

" مقابل كلّ جلسة، ألفيّ دينار جزائريّ".

" حسنا لا بأس، المهمّ أن تكون هناك نتيجة بإذن الله".

" كلّ شيء بيد الله".

ليس جاهلا بأمور الدّين، لكنّه مع ذلك يتعمّد العصيان، غير أنّه اهتمّ لقضيّة الولد، هذا الشّغف الذي لم يظهره بان من خلال كلامه، فضحته نظراته للأب وهو يتابعه باهتمام، إن كان كما قيل لـ "خالد" فلربّما يكون مفتاح الفرج.

خرج الأب مسرعًا والفرحة تغمره، لم تطل هاته الفرحة للأسف حتّى رنّ هاتفه، إنّها "ليلى"، حالما بدأ الحديث معها تغيّر لونه فصار شاحبًا، أخذته رعشة كادت تسقطه:

" ماذا؟ ماذا تقولين؟".

" إنّه في المستشفى الغربيّ الآن ... حدث ذلك منذ ساعتين ... أسرع ... ".

كانت "ليلى" تبكي وهي تحادث زوجها المسكين، أسرع بدوره إلى المنزل، ركبا السيّارة وتوجّها إلى المستشفى المطلوب، خبر الحادث ذاع بين الجيران إلى أن وصل إلى "ليلى" التي كادت تفقد صوابها.

بعد ربع ساعة كانا هناك، وفي قاعة الانتظار التقيا بالطّبيب الذي أجرى له جراحة مستعجلة:

" الوضع مستقرّ الآن، في انتظار استيقاظهما إن شاء الله".

" استيقاظهما؟ ألم يكن ولدي "عماد" وحده حين الحادث؟".

" بل كانا اثنين، هو وشابّة في مقتبل العمر، وكلاهما تحت المراقبة".

قالها الطّبيب الجرّاح وفي لحن قوله نبرة حزن ثقيلة أحسّت بها الأمّ:

" أحقّا هو في وضع مستقرّ؟"، لازالت تبكي فلم تستطع كبح دموعها خوفًا وقلقا على وليدها.

" سننتظر وقتا حتّى يزول أثر المخدّر ثمّ نرى، الإصابة التي تلقّاها على رأسه لم تكن سهلة، نأمل خيرا إن شاء الله".

انهارت "ليلى" بالبكاء فيما حضنها "خالد" مواسيًا، كان أمامهما زوجان في نفس حالتهما، لابدّ وأنّهما والدا الشّابة التي صدمتها الشّاحنة، تقدّما من "ليلى" و"خالد" وأقبلت المرأة عليهما قائلة:

" صبرًا علّه خير، إن شاء الله يخرجان من هاته المحنة سالمين معافين".

رفعت "ليلى" رأسها وإذا بامرأة فاتنة الجمال على وجهها ارتسم الحزن ارتساما، بجانبها رجل، هو زوجها، واقف على استحياء.

" إن شاء الله يا أختاه، إن شاء الله".

أضاف "خالد" وفي صوته ثقل واضح:

" ما باليد حيلة، ندعو الله أن يخفّف عنهما ويخرجهما من هاته المحنة عاجلا غير آجل".

نطقوا جميعا:

" آمين".

تمّ تحويل صاحب الشّاحنة إلى مركز الشّرطة للتّحقيق في مجريات الحادث، إلى حين انفراج الوضع وظهور خيط أمل يبشّر بنجاة الشّابّين.

....

"عماد" والفتاة أمام العملاقين فأوجسا منهما خيفة، وكيف لا وهما أمام جبلين لا ترى قمّتهما إلا بالارتقاء دون توقّف، كانت نيّة الهروب غير بعيدة، لكن إلى أين؟ حتّى وإن حاولا فلن يستطيعا بلوغ متر أو مترين بهاته الأغلال التي قيّدتهما، ومع التّعب والإرهاق، أين المفرّ؟

كانا مخيفين بأنيابهما البارزة وأعينهما الجاحظة، كتل عضلات تحسبها تماثيل عملاقة، على رقبة أحدهما سلسلة وقرطين، الآخر في معصميه أساور حديديّة إذا ارتطمت ببعضها دوّت وأصمّت ...

ما العمل الآن؟ كيف النّجاة من هاته المصيبة؟

في لحظة من اللّحظات انحنى أحدهما وانهار باكيًا، فهزّ صدى صوته الأكوان، تلك الدّموع سقطت رجومًا باردة على رمال الصّحراء، بقي ينوح على ركبتيه دون سبب مفهوم، أمّا الآخر فطفق ضاحكًا مقهقها لبكاء الأوّل.

" أفهمت شيئا ممّا يحصل؟"، سأل "عماد" الفتاة متعجّبًا، تتمعّن هي في العملاقين، ثمّ في الرّسالة التي بين يديها، ثمّ فيهما مرّة أخرى وبعدها في الرّسالة، بقيت هكذا لحظات حتّى اهتدت لليقين :

" علينا العمل على جعل حالتهما متعاكستين، الحزين هذا يجب أن يفرح ويسعد، أمّا الفرح فمن اللّازم أن يصير حزينًا مكروبًا وإلاّ فلن نجتاز هاته

المرحلة".

بقي "عماد" ينظر فيها حتّى صرخت في وجهه:

" علينا تطبيق ما أتى في الرّسالة وإلاّ بقينا هنا أتفهم؟".

ارتبك وردّ:

" حسنا، حسنا، لكن ... لم أفهم بعد ... ".

" بحسب ما خبرته عنك في الوقت القصير الذي قضيناه معًا بالتّأكيد أنت ماهر في جعل النّاس يائسة مكتئبة، أترك لك "الضّاحك"، وأنا سأهتمّ بأمر "الحزين لأصيّره فرحًا".

" مهمّتي أن أجعل الفرح مكروبًا؟".

" وهل تطيق غير ذلك؟".

صمت لحظة وأضاف:

" ولن يؤذيانا؟".

" لم يُذكر ذلك في الرّسالة، أمر مُستبعد".

" لكن لا أدري كيف سأبدأ معه، ماذا ستفعلين أنت؟".

"سأحادثه ربّما تكلّم، قُم بنفس الشيء".

" حسنًا".

اقتربت من "الباكي" حذرة متردّدة ملتحفة إزار الخوف والخشية وسألته:

" ما يُبكيك يا مخلوق؟ ما الذي جعلك في هذه الحال؟".

رفع رأسه نحوها ببطء واقترب، بدت وكأنّها دمية صغيرة لو نفخ عليها

طارت، ردّ عليها بكلمات متقطّعة وبصوت جهوريّ قويّ فيه بحّة:

" الحزن، الحزن سكنني فأكلني، لا أدري ماذا حصل لي، أو ماذا حصل للدّنيا حتّى تكالبت عليّ المصائب من كلّ صوب، فلم تترك لي يومًا أرتاح فيه".

اندهشت الفتاة واطمأنّت فهذا العملاق يتكلّم، يمكنها الآن محادثته، بقي "عماد" صامتا ينظر فيهما فقد صُعق ممّا رأى وسمع.

" ماذا حصل؟".

أصاب قبيلتنا مرض غريب، فمات الشّاب القويّ قبل الشّيخ الهرم، وقضى الصّغير قبل الكبير، ولم يبق فيها غيرنا أنا وأخي هذا الذي تريانه، لا ندري ما سبب نجاتنا، ولم نبحث كثيرا عن ذلك، فقد لذنا بالفرار سريعا بعد موت أبوينا، تاركيْن ركام الجثث تأكلها الجوارح".

حزنت الفتاة بالفعل لما سمعته منه، هو أكمل:

" خرجنا من أرضنا طالبيْن العون من البشر فرمونا بأسلحتهم الفتّاكة، الخفيفة والثّقيلة، الزّاحفة والطّائرة، فاخترنا هجرة كلّ مخلوق والبحث عن مكان لم تطأه قدم إنسان، سرنا أميالا، ليلا ونهارًا، قطعنا غابات وأنهارًا، حتّى وصلنا إلى هذا الخلاء فقلت لأخي هنا الملاذ الأخير الذي لا يجدنا فيه أحد، حفرنا الرّمال وغصنا، احتمينا تحت هذا الغطاء وتعوّدنا على الحرارة، فأجسامنا قويّة لذا تحمّلها، كذلك قاومنا الجوع والعطش".

" وماذا تأكلان وتشربان إن جعتما وعطشتما؟".

" نأكل مرّة كلّ سنة مهما بلغ الجوع، ونشرب مرّة في السّتّة أشهر مهما كان العطش".

" ألم تجدا مكانًا غير هاته الصّحراء تحتميان فيه؟".

" أينما نقلّب وجهينا نجد البشر، على اليابسة وفي البحر، لا يكاد يخلو مكان منهم، آذونا ولازالوا، ونحن تعلّمنا الدّرس ولن نكرّر الخطأ، كوننا عملاقين مسالمين لا نريد إيذاءهم ولا نبتغي العداوة بيننا وبينهم، هنا أفضل لنا فلا أحد درى بوجودنا غيركما أنتما الاثنان".

" يا لها من حياة، ويا له من مصير".

" فعلا، وكأنّنا وُجدنا فقط لنتعذّب، وكأنّ وجودنا بذاته عقاب لأنفسنا، لم نحض بالرّعاية إلاّ في صغرنا، ولم ننعم بالسّلام يومًا، توالت المصائب وتوالدت فأثقلت علينا ولم نستطع الاستمرار أكثر، فاخترنا الهروب على الدّخول في معركة أخرى نعلم يقينا أنّنا سنخسرها، فما الجدوى من البحث عن السّعادة في عالم يدين بالكراهية والحقد؟ وأين نجدها إن لم تكن موجودة في أنفسنا وغيرنا؟ نتخيّلها؟ نخدع أنفسنا ونمثّل فرحتنا بكلّ ما حولنا ومن حولنا دون الإحساس الصّادق بذلك؟ ما نفع ما نقوم به إن لم نسعد؟ لماذا نحن أحياء أصلا إن كنّا للحزن حتميّة؟ إن كان اليأس نهاية كلّ قصّة؟ ".

ما قاله فعليّ، منطقيّ، موجود حقًّا، فعلى مرّ التّاريخ كان الحزن لصيق العواقب، بل كان ولا زال نتيجة أعمال كنّا نحسبها مصدر الحبّ والإلهام، وإذا بها ترمينا في سواد الأسى الصّارخ، نحاول الخروج منه فلا نستطيع، لأنّنا نغرق ولا نجد من ينتشلنا من هذا الوحل الذي يجذبنا إلى أسفل عميقا، دون توقّف.

أغلقت الفتاة عينيها وبصوت هادئ ردّت:

" هذا لأنّك أحمق، جثّة عملاق بعقل عصفور".

انتفض العملاق لما سمع، ودُهش "عماد" ممّا قالته، فلا زال متابعًا لها منتبها لما تقوله ناسيًا تماما مهمّته، فالعملاق الآخر هناك يدور ويتقلّب ضاحكا دون سبب، غير آبه لما يحدث هنا ...

" أحمق لأنّك استسلمت لشعور واحد، وجميعنا نتذبذب بين مشاعر كثيرة، حصرت نفسك فيما لا يمكن حصره، وضيّقت على نفسك من حيث السّعة".

ردّ عليها العملاق غاضبًا:

" وأين السّعة في الرّفض؟ صرنا نكرة بسبب هذا الميز".

" ولم لا يكون هذا الميزُ ميزة؟ لم لا تكون هاته الضّخامة والقوّة أجمل ما فيكما؟".

" وكيف نقنع الآخرين بذلك والكلّ يهرب منّا ويرهبنا دون سبب؟".

" لا داع لإقناع النّاس فيظنّوا أنّكما تحاولان جاهديْن الوصول إلى القبول بالتحبّب والتملّق، بل اعملا وأثبتا وجودكما عوض التخفّي واتركوا لهم الحكم عليكما في الأخير".

" وكيف؟".

" ابنيا عمرانا، أصلحا خربًا، طوّرا، أنتجا، أرسيا دعامة حضارة عمالقة جديدة، عودا بما أورثتموه من آبائكم وأجدادكم من علم إلى الواقع وانفعوا به القريب والبعيد، القاصي والدّاني، فلربّما ما تعلّمتماه في قبيلتكم يعود

بالفائدة على البشريّة جمعاء، يوجد في النّهر ما لا يوجد في البحر".

صمت العملاق ورأى مطوّلا في الفتاة التي أبهرته بحسن منطقها وذكائها في قياس الأمور وتخريج الحلول:

" بماذا نبدأ في رأيك؟".

ابتسمت وأضافت:

" بإعادة أخيك إلى جادّة الصّواب أوّلا، فمن غير المعقول أن يبقى هكذا دون علاج، ثمّ بخطّة عمل يعقبها إنجاز، رويدا رويدا، يكبر مشروعكما وتصلان إلى ما رسمتماه من أهداف".

" ماذا لو لم ننجح؟".

" ستسعدان فقط بالمحاولة حتّى ولو لم تصيبا هدفكما، فمن حاول وفشل له الفضل عمّن تمنّى وبقي منتظرا نزول الوحي، وأظنّكما قادرين على الوصول وبلوغ ما ترومان إليه".

" أريد أن أبنيَ مدينة لي ولأخي نعيش فيها، وأتركها شاهدة على ما قمنا به بعد قضاء ما تبقّى لنا من وقت على هاته الأرض، أودّ أيضا ترك كتاب أسرد فيه تاريخنا من بدايته إلى غاية اللّحظة، أتركه ليقرأه البشر، حتّى يَعوا أنّنا غير الذي اعتقدوه، علينا تصحيح النّظرة بالعمل لا بالمواجهة، بالاجتهاد لا بالهرب والتخلّي عن المسؤوليّة، أليس كذلك؟".

" هو ذاك ... بماذا ستشعران بعدها؟".

" ماذا تقصدين؟".

" بعد هذا الذي ستنجزانه وتحقّقانه، بماذا ستشعران في رأيك؟".

فكّر قليلا، ثمّ ابتسم أخيرا وأجاب:

" بالسّعادة، لأنّنا صنعناها لأنفسنا، فصدّقها غيرنا لأنّنا صدّقناها بأقوالنا وأفعالنا".

مع تلك الابتسامة بدأت أصابع يده تتفتّت ترابًا يتساقط على الرّمال، ينظر فيهما متأسّفا، يدرك تماما أنّها النّهاية، جثا على ركبتيه ثمّ استلقى على ظهره وانتظر مآله المحتوم، عاش لحظات حياته الأخيرة ...

" لم أبلغ ما تمنّيت للأسف، ولن أستطيع تحقيق هذا الحلم، أترين؟ أنا أتلاشى، سأترك هاته الدّنيا دون أثر".

" بل ستتركها وأنت مقتنع بغير ما اعتقدته آنفًا، وهذا هو التّغيير، هذا أهمّ إنجاز".

تتلاشى يداه سريعًا ومعهما رجلاه تحت الأنظار الباهتة للفتاة و"عماد"، تآكل جسده وتفتّت ببطء، وكأنّما أراد أن يترك ذكراه مؤثّرة خالدة بحضور هذين الآدميّين، لم ينطق العملاق ببنت شفة، انتظر لحظة وصول العدم إلى رقبته بعد أن قضى على جسده، لم يبق فيه سوى رأسه، في تلك اللّحظة انتفخت وجنتاه فابتعدت الفتاة عنه أكثر خوفًا ممّا سيفعل، فتح فمه فخرج لسانه ملفوفا ما فتئ أن استطال على الرّمال، كاشفا على قارب صغير استقرّ أمام الأعين الشّاخصة لها ولـ "عماد" الذي لم يصدّق ما رآه اللّحظة، لحظة سكون وحيرة أعقبتها كلمات العملاق الذي لم تبق له في هاته الدّنيا سوى لحظات:

" هذا قارب نجاتكما، اركبا فيه قبل أن يزمجر الطّوفان".

ابتسامة عريضة على وجهه، ابتسامة الرّاحل بطمأنينة وسلام، خالية من كلّ حزن، مودّعة لكلّ أسى، تلاشى رأسه ولم يبق منه شيء، ذهب إلى الأبد ولن يعود.

لازال "عماد" محدّقا في الفتاة لحظات، بادلته نفس النّظرات الحائرة، اقتفى أثر العملاق الرّاحل بعينيه دون أن يجد شيئا منه، استحال تربة على رمال، حينها فكّ القيد الذي كان يربطهما، هكذا وكأنّه السّحر كُسر وتحرّرا، نّها أووّل بشائر الفوز، استيقظت الفتاة من غفلتها ونزعت عنها ستار الحزن الذي غطّاها واعتراها سريعا:

" ألازلت محدّقا فيّ؟ قم بما اتّفقنا عليه أسرع ...".

قالت ما قالت والدّموع في عينيها، أمسكتها حتّى لا تسقط على وجنتيها، لكنّها ظاهرة صارخة، تأثّرت الفتاة بالفعل بما عاشته اللّحظة.

اقتربت نحو ذلك القارب الصّغير سائلة نفسها:

" لماذا وهبنا هذا القارب قبل رحيله ونحن في صحراء؟ ما حكاية هذا الطّوفان الذي ذكره؟ ...".

طفقت تحوم حول القارب وتتفقّده، فيما تركها "عماد" ودنا من العملاق الثّاني الذي لازال ضاحكا متقلّبا على الأرض مزهوًّا بغير سبب:

" أنت ... أيّها العملاق ... ما الذي يضحكك؟".

علا صوته بالقهقهة حتّى صُمّت الآذان، وضع "عماد" يديه على أذنيه مغلقًا إيّاهما دون فائدة:

" ألا تدرك حجم المصيبة التي ألمّت بك؟ لقد مات أخوك وفقدت آخر

سند لك وأنت تضحك؟".

توقّف أخيرا، سكت ونظر فيه، استلقى على الرّمال مسندا رأسه على يده متفرّجا فيه مستفزّا الشابّ:

" وإن فقدته أين الضّرر؟ أصلا ما علاقة فرحتي الدّائمة بموت أخي؟ أيجب أن أحزن لمجرّد أنّه مات؟ الموت أمر طبيعيّ، الكلّ يعلم أنّه سيموت لا محالة، الوقت يختلف فقط".

انبهر "عماد" من منطقه الذي يشابه طريقة تفكيره، إنّ المشاعر في الأصل ردود فعل ميكانيكية، آليّة، مصفوفة بعناية بحسب المواقف التي نتعرّض لها، تظهر بالتّلاؤم والحدث الواقع، لا علاقة للشّعور والإحساس بها، لا دافع داخليّ ضمنيّ لها، أصلا لا وجود لإحساس كما عرّفه الكلّ واتّفقوا عليه، كيف سيوقع بهذا العملاق وقد توازى تفكيره بتفكيره؟ إنّه يضحك، يضحك في الوقت الذي كان يجب أن يحزن فيه، موت أخيه لم يشعره بالألم، بل لم يؤثّر فيه، هو فقط يعاني من مشكلة في ترتيب واصطفاف ردود الفعل هاته، يحتاج لمن يعيد ترتيبها حتّى تكون الآليّة مضبوطة كما تعارف وتعاهد عليه الجميع، لأنّه لا مفرّ من الدّخول في الصفّ ولا حياة لمن عارض الكلّ، عليه ان يعيد ضبط الأمور ومعالجتها: الموت يساوي الحزن وكفى، كما أنّه مضطرّ وإلاّ لن يجتازوا هاته المرحلة اللّعينة، فكيف السّبيل إلى ذلك؟

" لم كلّ هذا الصّمت؟ ألم تقتنع بما قلت؟".

" بلى اقتنعت، ومعك كلّ الحقّ".

" في ماذا؟".

" في عدم ربطك الموت بالحزن، ما الدّاعي لذلك؟".

" يعني توافقني الرّأي؟".

" أبدا".

استغرب العملاق من ردّ الشّاب فأوغل:

" ماذا إذن؟".

أغلق "عماد" عينيه وضحك، ثمّ صمت، صمت طويلاً ولم يردّ، شعر العملاق بالقلق والاضطراب لكن لم يظهره، حاول تقصّي ما يخفيه من عينيه، من حركاته السّاكنة، لكنّه خالٍ، فراغ من كلّ شيء، هذا الشّاب غريب، ليس كباقي البشر، إمّا أنّه بارع في إخفاء مشاعره، أو أنّه فاقد لها بالفعل.

" اسمع، أنا وتلك الفتاة هناك واقعان في ورطة، والخروج منها يستلزم القضاء عليك، وهذا لن يكون إلاّ بجعلك تحزن، ولا أظنّك موافقا على نجاتنا على حساب حياتك، وهذا أمر طبيعيّ ومفهوم".

ضحك العملاق ودنا أكثر من "عماد":

" وماذا ستفعل لجعلي أحزن يا ترى؟ فموت أخي الوحيد كان آخر أمر ممكن لأكون في هاته اللّحظة غارقا في آلامي وأحزاني، لم كن لديّ ما أخسره في حياته، فما بالك بعد مماته".

أردف كلامه ضحِكا عاليا، نظر فيه الشّاب وأطال، وفجأة طفق يضحك أيضا معه، من هناك تلمّحت الفتاة ما يحصل من بعيد، ولا زالت تسأل نفسها ما الغاية من وجود القارب هنا، لكن قلقها كان أكبر حيال ما يحدث

بين الشّاب والعملاق، فقرّرت أن تدنُو قليلا منهما بعد أن شدّ انتباهها ضحكهما غير المفهوم.

توقّف العملاق عن الضّحك لكنّ "عمادًا" استمرّ، للمرّة الثّانية لم يفهم سبب ضحك الشّاب، فسأله دون انتظار:

" لماذا تضحك؟".

صمت "عماد" ولم يردّ.

" ألم تسمع؟ لم تضحك؟".

" لأنّك مسكين".

اندهش العملاق من ردّه وكذلك الفتاة التي كانت مباشرة وراء "عماد".

" مقارنة مع البشر المنافقين، أنت أحطّ منهم درجة، يدّعي الواحد منّا أنّ له مشاعر، يجتهد لأن يكون "إنسانًا" بتلك الأحاسيس التي يظنّها تلقائيّة، أو التي يدفعها دفعا دون قناعة لكن عن إرادة نحو الآخر ليصدّقه، مع كلّ هاته المحاولات اليائسة الكاذبة يبقى أفضل، هذا المنافق أعلى قدرا منك، فهو يدّعي الإحساس بمشاعر كثيرة، ويظهرها حتّى لو اصطنعها لنفسه، وأنت على عظمة جثّتك نجحت فقط في أن تكون "فرحًا" وحسب؟".

اختلط الأمر على العملاق ولم يجد بماذا يجيب الشّاب، زاد اندهاش الفتاة ممّا سمعته، لم يترك "عماد" الفرصة لـ "ضّاحك" حتّى يتعافى من صدمته بل زاد:

" أتعلم؟ وجودك بذاته لا معنى له، إحساس واحد تعيش به لا يوصلك إلى شيء، ولا يجعلك غنيًّا أو مهمّا، الأحاسيس في الحقيقة عملة نقضي بها

حوائجنا، نشتري بها آراء الآخرين، نقنعهم بعكس ما صدّقوا، نخدع بها وننافق نعم، لكنّها تعود علينا دومًا بالفائدة والنّفع متى أحسنّا استغلالها، إنّها وسيلة، أداة، مجرّد سلاح يمكننا إشهاره متى أردنا، إذا كانت مصفوفة تظهر متى كان المقام مناسبًا أمر معقول ومفهوم، فإنّ استغلالها للصّالح الشّخصيّ ذكاء ودهاء لا يتقنه إلاّ المتمرّسون في فنّ الخداع والمكر".

في تلك اللّحظة احمرّ العملاق غضبًا وثارت ثورته على "عماد" فقام من مقامه سريعا محدثًا عاصفة رمال كبيرة كادت أن تقذف بالشّابّين من مكانهما لولا مقاومتهما لتلك الرّياح.

" اللّعنة عليك، كيف تجرؤ على التّقليل من شأن الوريث الأخير للعمالقة؟ ماذا حسبت نفسك فاعلا أمامي أيّتها الحشرة؟".

ابتسم "عماد" واستدار تاركا العملاق خلفه، مارًّا على الفتاة وكأنّ شيئا لم يكن، تستغرب بدورها فعله، تهرول نحوه محاولة إيقافه:

" ماذا فعلت؟".

" قمت بما يجب".

" لكنّك جعلته يغضب، لم يحزن يا فهيم".

ابتسم وردّ:

" تصديقه لكلامي جعله حقيقة في نفسه، فأحزنه ما قلت، والحزن هذا جعله يغضب".

فتحت عيناها من الصّدمة، فيما استعدّ العملاق الغاضب للقضاء عليهما، فجهّز قبضته وصرخ صرخة ملأت السّماء والأرض، لكنّه وفي تلك

اللّحظة بدأ يتلاشى، تلاشى بسرعة كبيرة، فسقطت كتل جسمه المتهاوي على الرّمال ترابا كما كان الأمر مع أخيه الرّاحل، لم تصدّق الفتاة ما حدث فيما وقف "عماد" شاهدا على ما فعله بهذا العتيّ.

" كنت محقًّا".

" أمقتنع أنت بما قلته؟".

" وما الفائدة من اقتناعي بما قلته وهي الحقيقة التي صدّقها الواقع".

تنظر فيه مطوّلا ثمّ تضيف:

" بالنّسبة لك ... المشاعر إن لم تكن ردّت فعل جافّة هي وسيلة لخداع الآخرين واستغلالهم لجلب مصلحة أليس كذلك؟".

بادلها نظرة أخرى، أبانت عن حقيقة مخفيّة خلف ستائر نفس منهكة فقدت الأمل والثّقة بالبشريّة:

" إنّها الحقيقة ... إنّه الواقع الذي عشناه ولازلنا نعيشه".

شعرت بذاك الألم الدّفين في نفسه، لم تعرف كيف تردّ عليه، فما قاله ليس بكذب، وإنّما الحياة تكالبت عليه بمصيبة جعلته يرى النّور ظلاما والخير شرًّا، لابدّ وأنّه عاش أسوأ تجربة يمكن تخيّلها حتّى ينحو بحياته هذا النّحو في طريق لا تبدو نهايتها مبشّرة.

" عفاف".

" ماذا؟".

" اسمي "عفاف" ناديني بهذا الاسم".

غاص في بحر عينيها مرّة أخرى، ثمّ خرج سريعا إلى السّطح:

" "عماد"، وهذا اسمي ... حسنا، على عكس ما توقّعت كاد هذا العملاق الثّاني أن يودي بنا لولا أنّ القدر سبق ومنعه عنّا".

" لست عرّافة لأدرك الغيب وما سيقوم به الآخرون، كان مجرّد تخمين".

" لا بأس ... ماذا نفعل الآن يا ... "عفاف" ".

همّت بالردّ فاهتزّت الأرض فجأة، إنّه زلزال، زلزال مصاحب لصوت غريب، كأنّه صوت غليان، نابع من تلك الحفرة التي خرج منها العملاقان من قبل.

" إنّه ... إنّه الطّوفان".

لم يفهم "عماد" قصد "عفاف"، انشغل بتثبيت نفسه ريثما تهدأ الهزّة، لكنّها أضافت صارخة:

" القارب، فالنصعد في القارب، إنّه الطّوفان، إنّه الطّوفان".

لا وقت للشّرح، بصعوبة وصلا إلى القارب وركباه، لازالت الأرض تهتزّ، أبت السّكون حتّى تفجّر ماء أبيض من تلك الحفرة، أطلقت الأرض من جوفها كميّات هائلة من ماء أبيض، كان لانفجاره زئير مهيب، بسرعة ملأت المياه تلك المساحات الكبيرة من الصّحراء، وبدأ القارب بالطّفو، حتّى استحال المكان إلى بحر على مدّ البصر، ولا شيء غير هذا البحر.

كيف لشيء كهذا أن يحدث في لمح البصر؟ أمر بالفعل غير معقول، من الغريب أنّ قوّة الماء لم تدفعهما بعيدا، بل بقيا تقريبا حيث كانا، تحت الأنظار الصّامتة لـ "عماد" وسكونه الذي نمّ عن دهشة فاقت المعقول، أخذت

"عفاف" القنّينة الزّجاجيّة التي احتفظت بها وأخذت من ماء البحر الأبيض ثمّ قالت:

" شيء من أوّل بحر، تشبّث جيّدا بالقارب فلا زال هناك المزيد".

بدورها شدّت بيدها الحرّة طرف القارب وبيدها الأخرى القنّينة ممسكة بها وكأنّها الكنز الذي ابتغاه الزّمن والمكان، أمّا "عماد" فالتزم الصّمت وفي نفسه خوف ورهبة لم يظهرهما، آثر انتظار ماذا سيحدث بعدها على أن يسألها، وها قد حدث ...

غير بعيد عنهما ظهر عمود مائيّ أسود لامس عنان السّماء من هذا البحر، مياه سوداء قاتمة وكأنّها سكّين شقّت بطن مياه بيضاء لامعة، منظر فاق الخيال خيالا والفتنة جمالا، وكأنّه شعر حسناء أسود تدلّى من البياض إلى الفضاء.

" جدّف".

" ماذا؟".

" جدّف نحو ذاك العمود ولا تقترب منه كثيرا حتّى يتسنّى لي جمع بعض مائه في القنّينة، مهمّتك الآن التّجديف وبسرعة".

" وبماذا أجدّف يا ترى؟".

" بيديك".

نظر فيها وكأنّه يقول: من تكونين لكي تأمريني؟ لكنّه آثر التّجديف على إطالة الكلام في أمر لن تكون نهايته طيّبة إن استنفد طاقته في الكلام فيه، فجدّف تحت تشجيعات "عفاف":

" أحسنت ... جدّف ... جدّف ... بسرعة ... بسرعة أكبر... هيّا ... هيّا".

أخيرا وصل ... بالقرب من العمود المائيّ كانت المياه السّوداء تتفرّع إلى ألف فرع، وكلّ فرع إلى ألف، منظر مخيف ومهول، انقبض قلب الشّاب في الوقت الذي وقفت فيه "عفاف" ومدّت يدها التي فيها القنّينة نحو أحد الفروع فملأت منه قدرا، لم يختلط الماء الأسود بالأبيض داخلها، بل بقيا منفصلين ما دعا الفتاة للدّهشة والاستغراب، لم يأبه "عماد" لهذا الأم فقد كان همّه الوحيد ان يبتعد عن هذا العمود وفروعه، فقد بات الأمر غير مطمئنًا البتّة.

" أنهيت أم ماذا؟".

" نعم أنهيت، الآن جدّف بأقصى ما تملك من قوّة خارج نطاق هذه المياه".

" لست محرّك زوارق لعلمك، أو تدرين أنّي تعبت؟".

" كيف هذا تعبت؟؟؟ أتودّ أن يُمحى ذكرنا ونضيع في العدم؟؟؟".

" لا أريد، لكن ساعديني في دفعه، جدّفي معي فقد ملأت القنّينة من ماء ها العمود".

" حسنا لا بأس، فالنسرع".

وضعت القنّينة في زاوية آمنة من القارب، جدّفت معه حتّى ابتعدا، وإذا بالعمود يتهاوى على البحر، تساقط شعر الحسناء الأسود على سرير أبيض أرخى يديه لانتشاله، اختلط الأبيض بالأسود، امتزجا امتزاجا فصار البحر الأبيض رماديًّا هائجا، بقي الشّابان يشاهدان هذا المنظر الذي حبس

أنفاسهما، هاج البحر وماج، وارتطمت أمواج دفعها العدم ببعضها، فثارت ثائرتها وأقسمت أن لا تهدأ، هضاب فجبال تتدافع، تصهل صهيل الجياد المحاربة، انضمّت إليها سحب صارخة غاضبة، سوداء رماديّة، مثقلة بالسّحب نازلة إلى الماء ملامسة له، أدخلت الخوف والرّعب في قلبيّ الشّابين الضّائعين وسط جبال الأمواج وهول الرّياح والأمطار التي هطلت، ومعها السّحب أبرقت وأرعدت، تشبّثا بقاربهما الصّغير وهذا ينظر في الآخر وكأنّما يقولان لبعضهما: لا بأس لن يطول الأمر ويتغيّر الحال، لكنّ الخوف ملكهما، ليست الخشية من البرد أو الرّيح، ولا من تلك الأمواج والرّعود، لا بأس بالبلل وقسوة البرد، لا يهمّ إن تلاعب البحر الغاضب بالقارب، كلّ ذلك يُحتمل، ما لا يُطاق هو الضّياع، الاختفاء في المجهول، الذّهاب إلى اللاشيء دون عودة.

اغتنمت "عفاف" هاته اللّحظات التي خشيت أن تكون الأخيرة، رفعت صوتها ليسمعها "عماد":

" لسنا في الواقع يا "عماد" ... ولسنا تماما في الأحلام ...".

نظر فيها بصعوبة، منعته الأمطار من فتح عينيه جيّدا في تلك الظّلمة الرّهيبة، ردّ قائلا:

" أدري نعم، لسنا أحياءً ولسنا أمواتا ... نحن الاثنان في غيبوبة، سجن علينا الهروب منه يا عفاف ...".

نظرت فيه بدورها وابتسمت، استطاع أن يرى ضوء الابتسامة تلك في الظّلمة، استبشر وقال في نفسه:

" لم تكن خزعبلات، نحن في عالم آخر له قوانينه الخاصّة، إن أردنا

الخروج من هنا فعلينا تحقيق شروط الفرار من هذه المحنة التي وقعنا فيها ...".

طأطأ رأسه وأضاف:

" الخطأ خطئي، جررتك معي إلى هذا الجحيم دون إرادتك، لم يكن ذنبك سوى أنّك أردت إنقاذ حياة".

أغمض عينيه وأنهى:

" أشعر بالسّوء، لا أدري لماذا وكيف، لكنّها الحقيقة، ألم النّدم على ما فعلت، أهذا هو المقام المناسب لتظهر ردود الفعل هاته؟

لكنّها ليست ردّة فعل على ما قامت به هي ... إنّها قبضة من الدّاخل تعصرني أنا وحدي من فعلي أنا فقط ...

ليست آليّة ... وإلاّ لكنت تعوّدت عليها ... إنّه إحساس فريد ...

لا أدري ماذا أصابني... صرت أشعر وأتألّم ... من جديد...

لا أريد ذلك ... بالفعل لا أريد.

زاد غضب الطّبيعة ولم يرحم هذين الصّغيرين، حملتهما الأمواج المتراطمة إلى المجهول، إلى ما يجب أن يواجهاه بعد نجاتهما في الاختبار الأوّل، نجاح لم يتذوّقا فرحته، لم يسمح لهما الوقت بذلك، وإنّما هو عذاب بعد العذاب ...

عالم غريب، بالفعل عجيب ...

*****

الفصل الثّاني

الغضب

لازالا ينتظران الجديد، على أمل استيقاظ ولدهما سالما معافى، لم يبرحا مكانيهما طيلة ساعات، لم يتناولا شيئا إلاّ بضع قطرات من ماء تجرّعاها عنوة، كذلك هذا الزّوج الذي أدركا فيما بعد أنّهما والدا الفتاة تلك التي كانت ضحيّة الشّاحنة التي صدمت ولديهما، من الواضح أنّهما كانا في نفس المكان حينها، عليهما علامات الحزن والأسى وقد غطّاهما الخوف ساترا الأمل ومُلقيا بالأماني في جبّ الشكّ والرّيبة.

" أتراهما يا "خالد"؟ المسكينان، حالتهما يرثى عليها".

" ابنتهما في خطر، نفس ما نعيشه اللّحظة".

" قال الطّبيب أنّ حالته مستقرّة، ننتظر فقط استيقاظه من أثر المخدّر".

" نتمنّى ذلك يا " ليلى" "، قالها وفي نفسه قناعة أخرى، فكلّ الأطبّاء يقولون نفس الشّيء ليهوّنوا على ذوي المصابين والجرحى، لكنّهم على يقين تامّ بهلاك من عانق قدره واصطحبه لمثواه الأخير، فالموت لا يفرّق بين كبير وصغير.

أحسّت " ليلى" بعدم الارتياح لما قاله زوجها، فانزعجت واضطربت، لكن

ما نفع ذلك الآن؟ ما من حلّ آخر سوى الانتظار.

" أو تدرين يا " ليلى"؟ ما حدث لـ "عماد"، ما يحدث له، نحن مسؤولان عنه بشكل أو بآخر".

انتفضت وردّت:

" كيف هذا؟ ما الذي تقوله؟".

" بداية مشكلة ولدنا كانت بسببنا، قبل ثلاث سنوات أتتذكّرين؟".

تصمت " ليلى" مطوّلا، تزيح بنظرها نحو الأرض وتبقى كذلك هنيهة كانت بالنّسبة لها دهرا.

" كان علينا أن نخبره بالحقيقة في أوانها، في سنّ الخامسة أو السّادسة".

" معك حقّ، كان علينا ذلك".

تشاركا في تلك اللّحظة ماضٍ أليم، بذكريات ودّا لو نسياها، لو محاها الزّمن إلى الأبد، لكن هيهات أن تُهديَ الدّنيا الرّاحة والأمان بسهولة لمن رامهما، راحة البال غالية، وثمنها التّضحية، وعلى قدر التّضحية يكون هناء النّفس.

إذن ما هي القصّة؟ ماذا حدث بالضّبط؟

وُلد عماد في عائلة فقيرة، أنهكها المرض والجوع، ولأنّ الأب كان عاطلا عن العمل بسبب إعاقة تعرّض لها في عمله الذي سُرّح منه – مع دينارين كتعويض عن رجله المقطوعة- هجم الفقر عليهم فلم يترك منهم كبيرا ولا صغيرا، هاته العائلة المكوّنة من سبعة أفراد: الأبوان وخمسة إخوة، ذاقت الأمرّين لسنوات، ومع قدوم الطّفل الخامس زادت الأمور سوءً، بحث الأب

عن عمل آخر ليسدّ به رمق الأولاد، فلم يجد، إلى أن أوصلته الخيبات المتكرّرة والصّدمات النّفسيّة المتتالية إلى الطريق التي أودت به إلى النّهاية: الانتحار.

نعم، ذهب وترك زوجة لا حول لها ولا قوّة وعلى كاهلها خمسة، آخرهم رضيع، تجاوزت حزن زوجها رغما عنها، سدّت آذانها عما قاله ويقوله القاذفون، آكلو لحم البشر، أولائك الجالسون المتفرّجون على آلام ومعاناة النّاس، المتكلّمون في أعراضهم والآخذون بألسنتهم في دقائقهم وساعاتهم، لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة من شؤون هؤلاء البؤساء إلاّ تكلّموا فيها وأفتوا بظنونهم وغياب مروءتهم بما لا يرضاه دين أو عقل، حتّى إذا أُغلقت أبواب الرّحمة الإنسانيّة بعدما طُبعت صورة الأمّ بغير حقيقتها، صارت كما قالوا تبيع عرضها لمن يأتي علّها تنقذ ما بقي إنقاذه من عائلة تفكّكت وتشتّتت.

تعطي لمن دفع أكثر لحما أكبر، فما بقي شرف ولا عزّة في زمن يضحك فيه الغنيّ القادر على الفقير الضّعيف منتشيا بهلاكه ساخرا من وجوده وحياته.

الأخ الأكبر، عماد الأسرة، هرب إلى أوروبا وقطع البحر مهاجرا دون رجعة، الأخ الأصغر منه احترف بيع المخدّرات فبات في السّجن مذلولا مخذولا، الأخت التي بعدهما توقّفت عن الدّراسة وامتهنت الخياطة، فهي تأتي بالفلس والفلسين مرّة على مرّة لتسدّ به حاجة من حاجات الأسرة، والتي بعدها لازالت تدرس، لا حول لها ولا قوّة، أمّا الأخير فرضيع قاسم في بدايات حياته بؤس وشقاء هؤلاء المحرومين من عون "إخوانهم" ...

تبرّأ الجميع منهم، الأقارب والأصدقاء، فقط لأنّهم فقراء لا مصلحة تربطهم بهم، ولا ينفعون لشيء وهم المحتاجون لكلّ شيء، بُعدهم أسلم من قربهم، ونسيانهم أولى من تذكّرهم وذكرهم.

هكذا أحكمت المصائب قبضتها عليهم وأهلكتهم واحدا وحدا، فبعد هروب الأوّل إلى إسبانيا مات في الغربة مغدورا، والثّاني دخل السّجن ولن يرى نور الحريّة إلاّ بعد خمسة عشر سنة أخرى بسبب تجارة المخدّرات التي بات رئيس عصابة فيها تمّ تفكيكها، تلك التي امتهنت الخياطة شاركت أمّها في الدّعارة لمن يدفع، فلا بركة للفلس والفلسين في هذا الوقت ولا أمل يُرتجى من حرفة تقي شرّ الجوع والبرد، أختها الأصغر هربت دون رجعة، هربت من الفقر، من الذلّ والهوان، هربت من سوء السّمعة وألسن النّاس، هربت من العار الذي لحقها بسبب ما قامت به أمّها وأختها، وكذلك أخواها، هربت إلى المجهول علّها تجد بعضا من الكرامة، قليلا من الإنسانيّة ...

ما كان مصير ذاك الرّضيع؟ أبقي مع أمّه وأخته؟

كلاّ.

لأنّه كان حملا آخر لم تستطعه هذه الأمّ، ولأنّه يحتاج رعاية من مأكل ومشرب وملبس لا تطيقه لا هي ولا ابنتها، كلّفت أحدهم بأخذه ومعه رسالة فحواها:

" هذا الطّفل لكم لا أحتاجه، تكفّلوا به كما فعلتم بالآخرين".

وضعه وهرب، تركه يبكي طالبا الرّعاية والاهتمام، تخلّت عنه مرتاحة البال غير نادمة، فقد قتل فيها الفقر كلّ إحساس، وأجهز عليها الكره بضرباته

فتعلّمت منه كيف تصارع هاته الحياة الظّالمة، صارت تضرب وتردّ لهاته الدّنيا صاعها صاعين، بالكره كُرهيْن وبالبغض بُغضين، لا مجال للتّفكير في الآخر، ولا في أقرب الأقربين ولو كان ولدها من لحمها ودمها، الأنانيّة هي التي تنقذ صاحبها من الهلاك، هكذا يقول الواقع وهذا ما يجب أن يكون عليه كلّ واحد.

بالطّبع بقي الرّضيع في دار الأيتام هاته مع إخوانه وأخواته المغلوبين على أمرهم، دون أوراق مثبتة ولا وثائق، حتّى اسمه مجهول، تلك الرّسالة التي تركتها معه أمّه لم تكن لأجله بل لأجلها، فقط لتتأكّد أنّه بين أيادٍ آمنة مسؤولة فلا يستيقظ ضميرها المُؤنّب إن كان لها ضمير فتعيده.

في معركة إداريّة منهكة نجح فيها مدير دار الأيتام بجعل الطّفل تحت كفالة الدّولة، بات له ذكر ومكان في هذا المجتمع الذي رفضه منذ إطلاقه الزّفرات الأولى في هذا العالم البغيض، اسمه "عماد"، كما شاء مدير الدّار.

لم يمض وقت طويل حتّى أتى زوج يبحث عن طفل يكفلانه، لم يهمّهما إن كان ذكرا أم أنثى، وإنّما طفل يحيي فيهما شعور الأبوّة ويضيء عليهما ظلمة الدّنيا، مشتاقان شوق الظّمآن لشربة ماء، آملان أمل الأعمى في استرجاع بصره، صاحبتهما مربّية ومعها مسؤول، ثمّ أتى المدير بذاته وكأنّه أحسّ بأمر غريب أراد التأكّد منه، لم يجد الزّوج والزّوجة ضالّتهما، فخيّم عليهما الحزن سريعا قبل إتمام زيارتهما، إلى أن ناداهما الصّغير هذا من هناك قبل أن يصلا إليه، ناداهما بصوته الحادّ، بكى بكاءً هزّ به أركان القاعة، أراد الخروج من هذا القفص، من هذا السّجن، مهما كان، استدار الجميع نحو مصدر الصّوت وإذا بيدين صغيرتين تلوّحان من بعيد أنّي هنا، خذاني فأنا

الوحيد المشتاق لحضن يدفئني، أنا هنا، اقتربا منّي، أرجوكما اقبلاني.

همّا مسرعين إلى ذاك السّرير، وإذا بطفل أسمر يرتعش نشاطًا وحيويّة، يلتقط الأنفاس سريعا حتّى لا يغلبه السّكون، فاتحا عينيه السّوداوين، مطلقا ضحكات متقطّعة تدغدغ الرّوح وتذيب النّفس من المستحيل تجاهلها.

اقتربا منه أكثر وقد أثّرت فيهما تلك الضّحكات وهاته الحركات، مدّت الزّوجة يدها نحوه فالتقط سبّابتها سريعا ولم يفلتها، ركّز بنظرته عليها ولم يرمش، وكأنّه يقول بعينيه: "أريدك فلا تتركيني"، لم تشعر في حياتها بمثل هذا الإحساس، كانت قبضته رقيقة وقويّة في نفس الوقت، ذرفت دموع الفرح التي حبستها سنوات، كان كلّ من حولها مندهشين ممّا شهدوه، وكأنّ الصّغير هذا بحث عنها فوجدها، طلبها فاختصّها لنفسه، كيف ترفضه الآن؟ وهل لها القدرة والشّجاعة لذلك؟ اكتفت حينها بقولها:

" أريده ... بكلّ جوارحي أريده".

ابتسم الزّوج وأضاف:

" هو لنا بإذن الله".

كان أوّل لقاء للصّغير "عماد" ووالديه الجديدان " خالد" و"ليلى"، هذان اللّذان ابتلاهما الله بالعقم فعوّضهما بهذا الطّفل الذي سيغيّر حياتهما إلى الأبد، لم يكن الأمر بهاته السّهولة، فقد فتحت الشّرطة تحقيقا قبل أن يُقبل في الميتم بطلب المدير، إجراء روتينيّ تعوّد على تطبيقه في الحالات المشكوك فيها أو المجهولة، ولأنّ الدّليل الماديّ –الرّسالة- كان متوفّرا طال التّحرّي في

أمر الصّغير دون نتيجة، رغم البحث الحثيث عن ذويه.

كانت بداية أخرى له في كنف أسرة جديدة، أسرة أدركت قيمة الأطفال إدراكا فعليًّا، فكان ما افتقده موجودا من حنان وعطف، كبُر "عماد" ودخل المدرسة، تعلّم واجتهد، فكان من الأوائل بفضل ذكائه المتّقد ومتابعة والديه، كانت سنوات غبطة وفرحة بالنّسبة للأب والأمّ، كذلك بالنّسبة للولد، لم يحسّ لمرّة أنّهم ليسا والديه، رغم استغرابه الدّائم عن الشّبه المفقود بينه وبين "والديه"، لم يشغل باله كثيرا هذا الأمر، غير أنّ المشكلة الكبرى كانت معرفة الحقيقة وقد جاوز الولد سنّ الفهم ولم يحدث بعد.

كان خطأ "خالد" و"ليلى" أنّهما لم يكشفا حقيقة أنّهما ليسا والديه الحقيقيّين، وأنّه ولدهما بالتّبنّي، كلّ مرّة حاولا فيها مفاتحته الموضوع فشلا في ذلك، حبسهما الخوف، خشيا ردّة فعله، خشيا انقلاب فرحته إلى حزن دائم، غير أنّ هذا لا يقارن بكرهه لهما لو عرف الحقيقة، لربّما شدّ الرّحال للبحث عن والدته التي يجهلان عنها كلّ شيء، افترضا أن يبقى في رحلة البحث عن المجهول سنوات، خشيا من أن ينساهما ويتركهما في سبيل ذلك وهما اللّذان عاشا لأجله وبقيا آملين في الدّنيا بفضله.

غلبهما الظنّ، وكبّلتهما الأفكار السّوداء والمخاوف الرّعناء، فسكتا عن الحقّ حتّى استطال الزّمن فطال، إلى أن بات شابًّا يافعا على أبواب البكالوريا.

أفلحا في كتم السرّ والعيش مع ولدهما بأمان، لكن مهما كان يأبى الحقّ إلاّ أن يظهر، وفي غمرة سهوٍ غير مقصود تكفّل "عماد" –لأوّل مرّة- بإخراج وثائق إداريّة من أجل التّسجيل لامتحان الشّهادة، أخذ الدّفتر العائليّ وهمّ

إلى البلديّة، وهو يقلّب صفحاته استوقفته ملاحظة: متبنٍّ، لم يصدّق عيناه ما رأتا، انتابه خوف وهلع، جمد في مكانه وأخذته الأفكار إلى اللاّمكان واللاّزمان، أحسّ حينها بالضّياع، لم يستطع أن يفكّر فاختلط عليه الحابل بالنّابل، عاد جريا إلى المنزل دون انتظار.

كان يوما أسودا، واجه الشّاب والديه بما كشفه في الدّفتر أنّه ليس من صلبهما، ليس ولدهما الحقيقيّ، لم يجدا غير الرّكوع أخيرا للأمر الواقع والاعتراف بما خشياه سنوات، انكشف السرّ وبانت الحقيقة، فثارت ثورة "عماد" وحُقّ له أن يثور، فكيف بمثل هذا الأمر أن يبقى سرًّا دون أن يعرف؟ ومن حقّه أن يعرف مهما كان.

لم يشفع بكاء الأمّ وترجّي الأب لهما عند "عماد"، فقال والقهر مُهلكه:

" لن أسامحكما ما حييت".

أعزّ شخصيْن إلى قلبه خاناه، كذبا عليه، استغلّاه وتناسيا أنّ له حقّا عليهما، الحقّ في معرفة الحقيقة مهما كانت، كذلك كان شعوره، وعلى هذا الأمر رسا أمره.

منذ تلك اللّحظة تغيّر، صار شخصًا آخر، لم يعد قريبًا من والديه، لا يحدّثهما إلاّ نادرا، بات غائبًا عن المنزل إلاّ قليلا، صار كتومًا منطويًا على نفسه، كانت البداية فقط، المصيبة الكبرى فيما بعد وقعت ...

بعد أن عرف الحقيقة، حاول الوصول إلى ذويه الحقيقيّين، لم يجد الإجابة الشّافية لدى "خالد" و"ليلى"، لماذا تركه والداه في الميتم؟ ما الذي حدث لهما؟ أين هما الآن؟ لم يكن لهما أدنى علم، غير أنّه أخذ عنوان الميتم

الذي بقي فيه مدّة وقصده، وكان المدير نفسه لازال على رأس الإدارة، كانت دهشة المدير كبيرة بقدومه، تذكّره من ملامحه واسمه رغم مرور السّنوات.

بعد أخذ وعطاء لم يستفد "عماد" بكثير المعلومات التي كانت بحوزة المدير، أصلا لا زال الشّاب قاصرا في عمر السّابعة عشر، ما الذي سيفعله أكثر مما فعلته الشّرطة منذ أعوام؟ مصدر الرّسالة مجهول لم يُعرف صاحبها، كلّ ما وُجد مع الرّسالة غطاء قيل أنّه من صنع يدويّ، يُباع في سوق مدينة " الخمّاسين"، هناك نسوة ينسجن مثل هاته الأغطيّة التي هي بمثابة البصمة الدّالة عليهنّ.

قرّر الشّاب بداية البحث من هناك رغم محاولات المدير الفاشلة لإقناع "عماد" عن العدول عن الفكرة، ما زاد شكّه وريبته، ومعه عناده الذي لا يأبى إلاّ أن يصل إلى مبتغاه.

بعد بضعة أيّام من البحث بدا له وميض أمل، فقد وجّهته عجوز إلى دار يقال لها " الدّار الحمراء" فأهل الدّار هؤلاء " يعرفون كلّ شيء" ويمكنهم مساعدته إن أرادوا بيعه المعلومة، كلّ شيء بمقابل هنا، لا يؤمنون إلاّ بدين المال، خسر الشّاب كلّ مدّخراته التي حملها معه بسبب جشع وطمع العجوز، فوكّل الله أمره واستمرّ في دربه رغم مصابه.

هاته المدينة القذرة المظلمة، لا حياة فيها إلاّ لأشباح تائهة لا تدري ما إن كانت ذاهبة أم آتية، سوق فارغ من التجّار والنّاس، عمارات ذابلة متّكئة على بعضها من شدّة قدمها فانحنت وأبت إلاّ أن تبقى كذلك، تحت سماء رماديّة نزلت حتّى كادت تغلق على أهل المدينة فتخنقهم حزنًا وأسى، مدينة خالية

من الألوان، خالية من همسات الحياة.

وصل أخيرا إلى المنزل المطلوب علّه يجد ضالّته، كان كالحفرة في جدار أسود مهلهل، ليس فيه نوافذ، بابه خشبيّ قديم، وأعلاه قطعة قماش حمراء معلّقة، لربّما كان سبب تسمية الدّار بـ "الحمراء".

لكن ما الغرض منها؟

لم يهمّ، اقترب ودقّ الباب، ففتحت له فتاة طويلة القامة، عليها أصباغ زينة بألوان قوس قزح، مرتدية لقميص شفّاف يصل للأفخاذ، كشف أكثر ممّا ستر، وكأنّها دونه أمامه، هو استحيى فأشاح بوجهه إلى الجهة المقابلة، لكنّها تقدّمت منه والتصقت به في محاولة لإغرائه، أمّا هو فتراجع منتفضا من جرأتها، إنّها بائعة هوى، تريد منه ما تريده كلّ مومس، همّ بالهروب، حتّى سمع صوتا مناديا من داخل تلك الحفرة أن آتيني بالزّبون، فأمسكت بيده وأدخلته عنوة رغم مقاومته، كانت قويّة بالفعل، بالدّاخل كانت الرّائحة نفّاذة، الظّلمة شديدة تكاد لا ترى شيئا، الأفرشة والأغطية في كلّ مكان، فوضى عارمة، ووسط كلّ الأكوام تلك كانت هاته المرأة المبتورة من رجليها وسط مكبّ النّفايات هذا، قلّب نظره سريعا في المكان ثمّ استقرّ عليها، على هاته المرأة التي لم تحرّك ساكنا، بقيت تنظر فيه لحظات دون كلام، هو لم يشأ أن يطيل أكثر في هذا الوكر العفن، فعرّف بنفسه وسأل عن التي تركته على باب الميتم، لربّما تعرف شيئا عنها أو توجّهه إلى مكان تواجدها، بقيت صامتة تنظر فيه بعينيها الذّابلتين ووجهها القبيح، وكأنّها تقول له لماذا أتيت؟ ما فائدة قدومك؟ لماذا تبحث عنّي وأنا التي رميتك وتخلّصت منك؟

نعم إنّها أمّه الحقيقيّة، أو لنقل البيولوجيّة، وتلك المومس أخته التي امتهنت حرفة أمّها، لحظتها وبكلّ برودة ودون إحساس وندم كشفت عن هويّتها الفعليّة، حدّثته عن قدوم الشّرطة واستجوابها فيما يخصّه، لكنّ "عمادا" لم يفهم، جاوزت الموضوع بسرعة وسردت له الحكاية التي آلمته وأوجعته، كانت مستمتعة برؤيته كذلك والدّموع في عينيه تكاد تنهمر، تلذّذت بتعذيبه بتلك الكلمات التي حفرت جروحا عميقة في روحه حينها، هو بقي واقفا يستمع إليها دون حراك، وكأنّه عدوّ انتقمت منه، روت له سيرة عائلته المخجلة، الفظائع التي قاموا بها، مصير كلّ واحد من الإخوة، وذكرت له أنّها حاولت التخلّص منه عدد المرّات قبل قدومه للحياة، غير أنّه نجا مكافحا رافضا الموت رغم محاولات الإجهاض المتكرّرة التي قامت بها، أتت به إلى الدّنيا كارهة، لم تُسمّه حتّى، أرادت التخلّص منه، فكّرت في قتله ورميه في النّفايات لكن خافت أن يُكتشف أمرها بعد البحث والتّحقيق، فهذه جريمة وأمرها صعب، فقرّرت رميه في دار أيتام مصحوبًا برسالة كتبها عشيقها بطلب منها وهي تحت تأثير المخدّر، جمع بعض الكلمات ورصّها فلم يُطل، كان همّه الأوحد أن يكمل ليلته الحمراء معها، قبيل الفجر خرج ووضع القفّة التي كان فيها الصّغير ومعها الرّسالة في المكان المطلوب مع الحرص على عدم ترك أيّ أثر أو أيّ شخص يكون شاهدا على فعلته ثمّ هرب، كانت سعيدة لأنّها تخلّصت من ثقل ومسؤوليّة لم ترد تحمّلها، تحرّرت أخيرا وحرّرت معها ابنتها، وليذهب العالم إلى الجحيم بعد هذا.

كشفت الأسرار، فتحت كتاب الحقيقة وقلّبته أمامه صفحة صفحة حتّى قرأه وفهمه، بابتسامة عريضة ختمت كلامها، وتركت "عمادا" في غياهب

جحيم المشاعر يتخبّط، ماذا يفعل الآن؟ يشعر بالأسى عليها وعلى أخته وما صارا عليه من حال؟ أيشعر بالغضب؟ بالشّفقة؟ بالكره؟ بالعطف؟ أيتفهّم الوضع؟ يغفر لأمّه التي بحث عنها وظنّها الصّدر الحنون الذي فقده فينسى ما قامت به؟ لكن كيف؟ وبعد ماذا؟

منذ ولادته كان منبوذا مكروها غير مرغوب فيه، رفضته أمّه فماذا بقي بعد؟ حتّى وإن عاش في كنف هاته العائلة فلن يكون له مستقبل، لن تكون له حياة يعيشها ولا دنيا يصيبها، سيكون مصيره مثل إخوته، سيضيع في عالم الفساد كما ضاعوا ...

بماذا سيشعر؟ بماذا سيحسّ؟

لكن ...

ما فائدة ذلك الآن؟ هل ستعيد له الأحاسيس حبّ الأمومة الفعليّ ودفئ الأخوّة الصّادق؟ إن فرح أو حزن، إن غضب أو سكن، ما نفع ذلك وقد قُضي الأمر وكان ما كان ... لماذا نشعر ونحسّ ونتأثّر بالآخرين في الوقت الذي لا يشعر بنا أحد؟ ما الهدف من كلّ هذا؟

كانت الصّدمة قويّة، قويّة جدّا إلى درجة أنّ الشّاب غاب وهو ينظر فيها، غاب عن حاضره في عالم آخر خالٍ من كلّ شيء، تغيّرت ملامحه فصارت كملامح وثن ثابت، جامد جمود صخر لا يتحرّك، نادت العجوز الشّمطاء شابّين كانا في الخارج وأمرتهما برمي الحثالة خارجا، فالمكان هذا للزّبائن المحترمين لا يليق أن يكون فيه من يدنّسه، أمسكاه من ذراعيه ورمياه، أشبعاه ضربًا وشتما، ثمّ حذّراه أن يعود إلى هذا المكان، نهض وبقي ينظر في

باب هذا المنزل ...

لا حزن، لا ألم ...

لا خوف، لا ندم ...

لا شعور، لا إحساس ...

لا شيء يستحقّه هؤلاء البشر... هؤلاء النّاس ...

دفعته المشاعر، شجّعه الأمل في لقيا أمه وأبيه، في ملاقاة إخوته، ليكون المقابل ما كان ...

في الأوّل والدان تبنّياه، وأخفيا عليه الحقيقة لأنّها ستبعده عنهما، كانا أنانيّان، أرادا احتكار وجوده لهما بغضّ النّظر عمّا يريده هو، ثمّ بعد بحث ومعاناة، يجد أمًّا نابذة له كارهة لوجوده، أخت عاهرة كأمّها تبيع جسدها للقاصي والدّاني، يكتشف الماضي العفن لعائلته، فيكره وجوده ووجود من كانوا سببا في وجوده، كره من أنجبوه ومن ربّوه ومن تبنّوه لأنّ الجميع خدعوه ...

كذبوا عليه، استغلّوه، إنّها الأنانيّة ...

كان صادقا، أتاهم بمشاعر الشّوق والحبّ علّه يجد ما خطفه منه الزّمن فيسترجعه ويعيد معه الأشخاص الذين تمنّى أن يكون معهم، فعاد وحيدا لا يأبه لأحد ولا يحسّ بشيء.

صار لا شيء، روح دون روح، كفر بدين المشاعر وخرج من ملّة الشّعور والإحساس، بات آلة لا تصدّق سوى بردّات الفعل الميكانيكيّة، كما الآلات الاصطناعية، فمحال أن يكون الإنسان إنسانًا وهو يخدع ويمكر ويرفض أعزّ

شخص وأقرب مخلوق إلى قلبه ...

لا مشاعر ولا أحاسيس، إنّها تلك ردّات فعل آنيّة لمقام ملائم لها وحسب، مبرمجة تلقائيًّا لتقع في الوقت المناسب، ليست نابعة من الدّاخل، لا تغذيّها روح ولا يحرّكها قلب، وإنّما هي حركات مخطّط لها لتستجيب لمنفعة او مصلحة يستفيد منها صاحبها الآن أو غدا.

هذا الذي اهتدى به الشّاب بعد مدّة من تلك الصّدمة، وهذا الذي آمن به، ربّما صدقا عن قناعة أو مُرغما، فرضه عليه الواقع المرّ.

الحقيقة الكاملة هي أنّ التّحقيق أوصل عناصر الشّرطة إلى أمّ "عماد" لكن لمصلحة الولد لم تعده السّلطات إليها لأنها رفضته وليست لها القدرة ولا الكفاءة اللاّزمة لتربيته، حتّى وإن كان الكتمان في صالحه إلاّ أنّ الظّروف أبت إلاّ أن تجعل حياته أقسى وأصعب.

غاب عن المنزل أيّامًا بعد الذي حدث، فبحث عليه والداه المتبنّيان، حتّى وجداه بفضل الشّرطة تحت جسر من الجسور المنسيّة في المدينة، رفقة عدد من المتشرّدين، نائما على الأرض بثيابه الرثّة الممزّقة وعليه آثار كدمات وخدوش، كان يوما ماطرا زاده ضعفا وهونا.

اختار العودة إلى من تبنّوه لأنّ مصلحته تقتضي ذلك، فكيف يعيش وكيف يكمل دراسته إن لم يكن هناك معيل يعيله؟ لا خيار ثانٍ.

حتّى بعد اجتيازه لامتحان شهادة البكالوريا ونجاحه فيه بقدرة قادر على عكس كلّ الظّنون، وبعد أن صار بالغا مسؤولا عن نفسه حرًّا يستطيع الاعتماد عليها، بقي في منزل من ربّوه لأنّه لا يملك سكنا خاصّا به ولا عملا

يقتات منه، المصلحة تقتضي أن يبقى مع "هذين" ريثما يجد الحل ليطير بجناحيه بعيدا عنهما، عن كلّ هؤلاء الذين يحيطون به، عن كلّ البشر الذين عرفهم ولم يعرفهم، فكلّهم كاذبون مخادعون يبحثون عن مصالحهم بشتّى الوسائل والطّرق.

لمَ لا يكون مثلهم حتّى ينجو منهم؟ نعم فليكن مخادعا في عالم الخداع والمكر حتّى يعيش سالما إلى أن يحقّق مبتغاه، سيميل مثلما مالوا، ويتلوّن مثلما تلوّنوا، ثمّ يترك الجميع في وحل القذارة الذي يعيشون فيه ليكمل حياته وحيدا بعيدا عنهم في اللّحظة المناسبة.

هذه هي الحكاية ... تلك هي قصّة "عماد" كاملة.

لازالا يمعنان النّظر في الأرض ... غارقان في همّهما وخوفهما عليه رغم كلّ ما حدث وحصل، فلا زالا والديه اللّذيْن تبنّياه.

....

في العالم الآخر... استيقظ "عماد" بصعوبة، فتح عينيه وكأنّ بهما حملا ثقيلا قاومه فأزاحه، رفع نفسه ببطء، كان مستلقيًا على رمال بيضاء التصقت بوجهه وملابسه، على شاطئ عذريّ فائق الجمال، وقف وطفق يقلّب بصره في الأنحاء، اقترب من الماء وتقدّم فيه، مياه هذا البحر بلّوريّة، نقاؤها لا مثيل له، تكشف عمقها للنّاظر دون استحياء، فأسماك وقناديل، أعشاب بحريّة ومخلوقات غريبة لم ير نظيرا لها في حياته، استدار وقابل هاته الجزيرة التي رماه فيها البحر الهائج، إنّها بالفعل جنّة، تنتهي الرّمال البيضاء في عشب أخضر يستطيل باستطالة نخيل لامست قممه قبّة السّماء الزّرقاء،

طيور هنا وهناك، ملوّنة جملة، ملأت الكون أنغاما شجيّة، نسمات برد تأخذك إلى عالم آخر، عالم خيال حقيقيّ، إنّها صغيرة لا تمتدّ في المساحة كثيرا، غير أنّ جمالها فريد لا يُقاوم، ما ميّزها بالفعل ذاك الجبل الصّغير المسودّ، يبدو وكأنّه جبل بركانيّ خامد، عليه تجاعيد الزّمن محفورة عليه بوضوح.

و في لحظة ...

" أين هي؟ أين ذهبت؟".

لم يجد "عفافًا" أمامه، بحث عنها في الأرجاء دون قائدة، تذكّر أنّ العاصفة تلك كانت قويّة فقذفت بهما إلى هذا المكان، من الممكن أنّهما قد فقدا وعيهما قبل الوصول إلى هنا، لكن الأمر المؤكّد أنّهما كانا مع بعض دون شكّ، لو بقي القيد على حاله أفضل، تمنّى لو أنّ الأغلال تلك بقيت صامدة ولم تحرّرهما، على الأقلّ لا يفقد أحدهما الآخر كما حصل الآن.

" اللّعنة، ما العمل الآن؟ لم أجدها، كذلك القنّينة لم اعثر عليها، أتراها أخذتها معها وذهبت؟ لكن إلى أين؟ ولماذا تركتني وحدي مرميًّا على الشّاطئ؟".

و هو يمشي على رمال الشّاطئ يسأل نفسه ويجيب، لمح آثارا غريبة، إنّها آثار أقدام، أقدام بشر نعم، انتفض واقترب منها أكثر، بدت وكأنّها لأشخاص كثر وليست لواحد، فانتابه شعور غريب، عدم اطمئنان، قلق واضطراب، خوف ربّما، لكنّ الأمر لا يبشّر بخير.

" ما معنى هذا؟".

تابع تلك الآثار حتّى توغّلت به داخل غابة تشابكت فيها النّباتات وتعانق

فيها النّخيل بشكل غريب مدهش، رمت الطّبيعة بظلّها عليه فرحمته من أشعّة الشّمس القويّة التي جفّفت ثيابه في لحظات، استمرّ في توغّله راجيا أن يجد دليلا على "المفقودة"، وكان الأمر كذلك من حسن حظّه.

" ما هذا؟ قطعة قماش؟ إنّه ... من ثوبها الأبيض".

هو في الطّريق الصّحيح، أكمل سيره بين حشائش ونباتات، ثم جاوز جدول ماء رقراق، بعده مرتفع مكّنه من أخذ صورة واضحة عمّا يوجد في الأفق القريب، وإذا بعمود دخان ليس ببعيد عنه بين النّخيل صاعد، فتح عينيه وقال:

" لا بدّ من وجود أحدهم هنا، سأجد المساعدة بالتّأكيد".

هرول نازلا من تلك الهضبة، متّجها سريعا نحو المكان المقصود، راوغ بصعوبة تلك المطبّات حتّى وصل إلى ...

" ما هذا بحقّ الإله الواحد؟".

شبه ساحة أرضيّتها حجريّة، وسطها هرم صغير فيه أدراج عالية توصل إلى كرسيّ -كذلك حجريّ- مبنيّ في قمّته، استوى عليه مخلوق غريب، يشبه البشر في شكله، إلاّ أنّه طويل، أسود العينين جميعا، أزرق البشرة ذو شعر طويل، فاقد الأنف كبير الفم، على جسده وشام مخيف، لباسه غير مألوف، يشبه لباس القساوسة، أو الرّهبان، مختلف قليلا، أو كثيرا، لم يستطع التّمييز، حوله في قاعدة ذاك الهرم حرّاسه وأتباعه دون شكّ، حوالي الثّلاثين، كلّهم متشابهون، بنفس صفة ملكهم، شكّلوا حلقة حول نار أضرموها فبلغ لهيبها مبلغا عظيما في السّماء، وبجانب تلك النّار، ووسط

السّاحة بالذّات كانت هناك، " عفاف" مربوطة على جذع نخلة صغيرة، تحاول جاهدة الإفلات دون فائدة ...

بُهت لما رآه.

" أنتِ هنا؟ ما الذي حصل؟".

رأته فاستبشرت خيرا، فما بقي لها أمل سواه.

" الحمد لله أنّك أتيت، خطفني هؤلاء وربطوني هنا، يريدون التّضحية بي لإتمام طقوس غريبة، تكلّم معهم أرجوك، أقنعهم بالعدول عمّا أرادوا".

" أيفهمون لغتنا؟".

نطق أحد الحرّاس مجيبًا إيّاه بغلظة:

" بالطّبع نفهم لغتكم، ولغات كلّ من يأتونا غازين لأرضنا العذراء".

" لم آت هنا لأغزوَ أرضكم، وإن كنت كذلك فهل آتي وحدي برفقة فتاة لأغزُو؟ إنّها الظّروف ومحن الحياة، هبّت بنا رياح العاصفة وألقت بقاربنا الصّغير الذي لم أجد له أثرًا هنا على ساحل هاته الجزيرة دون علمنا أو رغبتنا".

قاطعه آخر:

" أشعلنا نارنا المقدّسة بحطب ذاك القارب، لا مجال للعودة من حيث أتيتم".

سكت "عماد" هنيهة، بدأ يشعر بالخطر يغلق عليه أبواب الأمل من كلّ جانب.

" أنا وهاته الفتاة التي ربطتموها هنا بريئان ممّا تظنّون".

حينها نطق الملك فانحنى الجميع احتراما لصوته، إنّها " النّعمة" التي حلّت والخير الذي بسط جناحيه على السّماء والأرض، فإذا نطق الملك كانت العادة أن يشكر الجميع هاته النّعمة، لأنه نزل من علوّ قمّته إلى سفالة أتباعه عن رغبة منه وتكرّم.

" وما قصّة هاته القنّينة؟ أمرها غريب".

" القنّينة؟".

ينظر "عماد" في "عفاف" وبإشارة منها يفهم أنّه عليه أن يكتم هذا السرّ ولا يفشيه.

" فيها دواء، نوع خاصّ من الأدوية".

يقلّب الملك القنّينة في يده ويضيف:

" دواء؟ كتلتان من ماء أبيض وأسود تتصارعان ولا تمتزجان؟ تسمّي هذا دواءً؟".

لم يجد الشّاب ردّا لما قاله ... فبقي صامتا.

" إنّه السّحر... أنتما ساحران إذن".

" كلاّ أأكّد لك".

بغضب ردّ الملك:

" بلى لا تكذب ... أنتما ساحران تريدان إضلالنا بسحركما اعتمادا على هاته المادّة الغريبة، تريدان استغلالنا وجعلنا عبيدا لكما أليس كذلك؟".

تغيّر لون الملك إلى الأحمر وكذلك أتباعه، نزل من القمّة إلى السّاحة واقترب من "عماد" فتبعه الحرّاس، جمد الشّاب في مكانه خوفًا ورعبا، كان الملك طويل القامة مخيفا.

" اعترف بالحقيقة وإلاّ ربطناك كما ربطناها وجهّزناك للتّضحية كما جهّزناها".

سمعت "عفاف" ما قاله الملك فاضطربت أكثر، لكنّها لم تُردف على ما قالته خوفًا من أن تزيد غضبه فيقرّر حينا القضاء عليها، يدرك "عماد" هذا الأمر، بسرعة يهتدي إلى ما غاب عنه قبل لحظات: هما الآن في خضمّ الامتحان الثّاني، وما يجب عليه هو أن يجعل هذا الملك وأتباعه يهدؤون وإلى الاستكانة يهرعون، يقتربون أكثر منه، حتّى شعر بأنفاسهم حوله تلفحه لفح اللّهيب الحارق، زاد احمرار أوجههم وأجسادهم، إنّهم في قمّة غضبهم.

" اعترف أيّها السّاحر الملعون، اعترف وأعدك أن أبقي على حياتك وحياة تلك الفتاة".

بقدر ما هو خائف الآن رغم إنكاره الدّائم لما يشعر، بقدر ما فكّر في منفذ ينجيه من هاته الورطة التي توشك أن تفتك به وبـ "عفاف"، ثمّ فجأة، انسابت فكرة إلى عقله المضطرب هكذا بسرعة، وكأنّها نادته ليأخذها قبل أن يستخلصها الزّمن السّاري لنفسه، هدأ فتنفّس الصّعداء، ابتسم وهو ينظر فيهم واحدا واحدا ممّا زاد غضبهم وثورتهم عليه.

" ما الذي يضحكك؟ ".

" لا شيء".

" أتهزأ بنا ومصيرك بين أيادينا؟".

ضحك وردّ:

" الآن أدركت أنّكم جميعا هنا ممثّلون، ليست لديكم إرادة ولا قدرة على فعل ما فعلتموه، ولا حريّة لما أُريد لكم أن تقوموا به".

نظر أحدهم في الآخر ثم سأل الملكُ "عمادا":

" ما الذي تقوله؟".

أخذ وقتا قبل الردّ، فقد استعاد ما حصل له ورتّب عناصر تلك الفكرة جيّدا في ذهنه، وكأنّها إلهام اقتنصه من حيث لا يدري، غير انّه الآن يدرك الحقيقة ...

" لفظنا البحر إلى الشّاطئ، فكانت "الإرادة العظمى" أن تأخذوا الفتاة وحسب، لماذا أخذتموها هي وتركتموني أنا؟ لأنّ اختبار هاته المرّة كان موجّها لي بالتّحديد، هاته "الإرادة" تمتحنني لترى كيف أواجه خصومي وكيف أتملّص من كلّ ورطة توقعني فيها، استعملتكم لذلك ووجّهت اختياراتكم التي تبدو غريبة وغير منطقيّة البتّة، لكنّها كذلك لأنّ "الإرادة" أرادت ذلك، كطريق توصل إلى هدف واحد رغم أنّ السّبيل هذا فيه ما فيه من اعوجاج، هذا العالم بالذّات لا يخلو من بعض الأمور التي لا يتقبّلها العقل".

نظر في الملك وأضاف:

" كيف بكم تشعلون ناركم المقدّسة بخشب الزّورق المبلّل؟ أو انتظرتم أن يجفّ ربّما؟".

توتّر الملك وردّ سريعا دون كثير تفكير:

" بل أشعلناها رغم بللها ... المهمّ أنّها اشتعلت".

" تركتموني لسبب لم تستطيعوا شرحه، ذلك لأنّه ليست لكم حريّة الاختيار والفعل، أمّا بالنّسبة للنّار فاشتعلت لأنّ قواعد وقوانين هذا العالم أرادت ذلك، وليس بإرادتكم أنتم، ولو فعلتموها ما كانت لتشتعل للسّبب الذي ذكرته آنفا، أنتم هنا لأنّ "الإرادة" أرادت ذلك وليس لأنّكم أردتم، كقطع شطرنج تحرّكها لتوقع بي أنا المعنيّ بهاته المواجهة".

انتابهم الفزع، تغلغل الخوف إلى أنفسهم بسرعة كأنّهم غير الذي كانوا منذ لحظات، كلامه هزّ فيهم ثقتهم بأنفسهم، بدؤوا بالفعل يتساءلون عمّا قاله، بل وجدوا فيه بعض الذي غفلوا عنه، هدأت الأنفس، هدأت لأنّ الخوف تملّكهم، فصار لونهم إلى الورديّ بعدما كان أحمرا، لاحظ الشّاب ذلك فأدرك أنّه على صواب، وهذا الأسلوب بالذّات هو الذي سيوصله إلى النّجاح والتفوّق على هؤلاء لا محالة.

" كلّكم هنا مجرّد دمى مُتحكّم فيها، حتّى "عفاف" هاته الفتاة التي خطفتموها كانت جزءً من مخطّط سبق وتمّ إحكامه، أنتم جميعا أقمار تحوم حول كوكب واحد، جاذبيّته هي التي تبقيكم قريبين منه، لولاه لما كنتم ولا بقيتم، لا معنى لكم من دوني أنا، حتّى وإن أقدمتم على التّضحية لن يكون لكم بعدها أهميّة لأنّ وجودكم قائم بي فقط ... قدركم أن تكونوا في ظلّي تابعين ولو أنكرتم".

تراجع الجمع وتحوّلت ألوانهم إلى الأزرق، لحظتها حدث ما لم يكن في الحسبان، أحجامهم، أحجامهم جميعا بدأت في التّناقص، في التقلّص، هذا

من تأثير كلامه عليهم، هم لم يستطيعوا الردّ على ما قال فلم يجدوا الكلمات المناسبة، الخوف والشكّ أسكتهم، أدخلهم عنوة نفق الهدوء، لكن أيّ هدوء؟ ذاك السّكون الذي لا تجد فيه جوابًا لوجودك وحقيقتك، شبه استسلام، إنّه هدوء الموت القريب ...

" فقهُكم بلغات البشر جميعا غير معقول، هذا أيضا كان مبرمجا فيكم، لغرض امتحاني بالذّات، أجزم أنّكم لم تلتقوا من قبل بغرباء سوانا، أنّا و"عفاف" الوحيدان اللّذان وصلنا إلى هذه الجزيرة، وسنكون الوحيديْن دون شكّ، لن يأتي غريب غيرنا بعدنا مستحيل".

قالها بثقة كبيرة في حين أنّ أحجام الحرّاس وملكهم تناقصت أكثر فأكثر حتّى بلغوا قدر ركبته، لم يستطيعوا حتّى استدعاء غضبهم ليعيدهم كما كانوا، بل أغرقهم السّكون والذّهول في مصابهم الذي لم يجدوا له تفسيرا، فكلّما سكنوا وهدؤوا باتت الغلبة لخصمهم، ما كان عليه سوى أن يضمن غرقهم في خوفهم حتّى لا ينشغلوا بغيره، ولا يشعروا بسواه، فكان له ذلك، واستمرّت أحجامهم بالتقزّم حتّى باتوا كالصّراصير تتحرّك هنا وهناك، بشكل عشوائيّ دون هدف، استقرّت القنّينة دون أن تُكسر على الأرضيّة الحجريّة لحسن الحظّ، ذهلت الفتاة من مكر الشّاب وكياسته، أمّا هو فأخذ وقته في تعذيب خصومه أكثر، ليختم العرض بقوله:

" لن يأتيَ غريب بعدنا لأنّني الغالب في هاته اللّعبة، لم يبق لكم مكان في هذا الوجود للأسف".

رفع قدمه وداس عليكم الواحد تلو الآخر، ترك الملك أخيرا ليكون

القضاء عليه مسك الختام، نزل على ركبتيه واقترب منه، قرّب أذنه ليسمع ما كان يقوله، فقد بقي في مكانه يقفز مريدا خصمه الذي صار هو العملاق وهو الحشرة.

" سأقضي عليك ... سأقضي عليك ...".

بدت وكأنّها نفحة غضب حقيقيّة، بدأ حجمه يكبر، إنّه يكبر بالفعل، هو الغضب الذي يكسبهم القوّة لمواجهة الخصوم والأعداء، لكن "عمادا" كان نبيها سريعا، داس عليه قبل أن يزيد حجمه فتتفوّق بعد ذلك قامته وقوّته ويصير المغلوب بعدما كان الغالب، قضى عليه كما قضى على البقيّة من قبل، لتذهب آثارهم بريح ذرتهم كما تذرو البقايا على رمال لم تلق لهم بالا.

" أحسنت يا "عماد" كنت رائعًا".

بدت عليه علامات الخجل، أسرع إليها وطفق يفكّ قيدها، في تلك اللّحظة اهتزّت الأرض هزّاً عنيفا أسقطته، ماذا يحدث؟ ما الذي يحصل؟

" أسرع فكّ قيدي، إنّها نهاية هاته الجزيرة".

" ماذا؟".

" قد اجتزنا العقبة الثّانية بنجاح، معنى ذلك أن لا جدوى من هاته الجزيرة الآن".

نهض بسرعة والأرض لازالت تهتزّ وترتجّ، وهو يفكّ قيدها:

" ماذا سيحصل؟".

" الجبل هناك، هو في الحقيقة بركان نشط، سيقذف حممه في أيّ

لحظة".

" اللّعنة، وكيف علمت؟".

" الدّخان الذي بدأ يتصاعد من فوّهته، كفانا كلاما الآن، آتني بالقنّينة لا تنسها".

أسرع وحمل بيده القنّينة ثمّ سألها:

" الرّسالة؟ أهي معك؟".

" نعم أخفيتها عنهم، لا تقلق".

" ماذا نفعل الآن؟".

تقلّب نظرها هنا وهناك، فلا تجد مخرجا لهما من هاته الورطة.

" لا أدري، ربّما علينا الهروب من الجزيرة".

" الهروب؟ كيف؟ ليس بحوزتنا قارب، وإن كان حقّا أسيكفنا الوقت؟".

بات الرجّ قوى، بدأت الأرض في ابتلاع نفسها وكلّ النّخيل الذي في طريقها، بانت شقوق غريبة هنا وهناك، ومنها تنفّست الأعماق وطردت هواءً ساخنا أحسّا به من بعيد، هناك فوق، قذف البركان دخانًا أسودا غطّى السّماء وحجب الشّمس فمنع ضوء من التسلّل عبره، ثم لفظ الحمم غزيرة فتدفّقت عليه وعلى الجزيرة، ارتفعت الحرارة سريعا فكان المنظر قطعة من هول مخيف لم يكن في الحُسبان.

" يا إلهي، ما كلّ هذا؟".

" هلكنا يا "عفاف"، لا مفرّ من هاته الورطة".

نظرت فيه نظرة رأفة، فقد شعرت بخوفه رغم محاولته الدّائمة لإخفائه إلاّ انّه يأبى إلاّ ان يظهر على وجهه الصّارخ بصمت وعلى جسده المرتعش ...

" انتظر... وجدتها".

" ماذا؟".

" الكرسيّ الحجريّ ذاك، فوق هناك".

" ما به؟".

" إنّه واسع كبير، فالنتّخذه مركبا علّنا ننجو".

" تقصدين ... أنا وأنت؟".

" لا أنا وظلّي ... أتتعمّد إغضابي أم ماذا؟ بالطّبع أنا وأنت، إذن من غيرنا برأيك؟".

يصمت "عماد" ثمّ يردّ:

" هيّا إذن".

سبقها هو في صعود الأدراج العالية تلك فيما بقيت "عفاف" تصارع نفسها وتقاوم الترنّح لتصعد، نظر إليها من فوق ثمّ عاد بسرعة وأمسك بيدها وقال:

" هكذا لن نصل إلى فوق أبدا".

أمسكها من ساعدها وأعانها على الصّعود إلى القمّة، كانت الحمم قد وصلت إلى تلك السّاحة وبدأت تلتهم الأخضر واليابس، حرارتها غير المعقولة أذابت الحجر، كانت سريعة الانتشار لا يقاومها شيء، غطّت كلّ ما بان، حتّى

ظنّ الشّابان أنّها ستصل إليهما، لكنّها استقرّت في الأسفل، انفصل الكرسيّ عن قاعدته الحجريّة فطفا بهما على هذا البحر الأحمر، بقيا متمسّكين بأطرافه خائفين متردّديْن، ينظر أحدهما إلى الآخر مرّة على مرّة، ثمّ يعودان لمراقبة مستوى الحمم إن صعدت أم لا.

" إنّها اللّحظة المناسبة".

" اللّحظة المناسبة؟ لأي أمر؟".

" إنّه البحر الثّالث، وعليا أن نملأ منه شيئا من القنّينة مع ما جمعنا من قبل".

" ونأخذ من هاته الحمم؟ ستذوب يد أحدنا لو اقتربنا أكثر، وكأنّ القنّينة ستتحمّل الحرارة وتستوعب بعضا من هذه النّار".

أخذت "عفاف" القنّينة وفتحتها، ابتسمت في وجه " عماد" وردّت:

" إنّه عالم مختلف، قوانينه مختلفة، كثيرا ما يغيب عنه المنطق، تماما كما قلت منذ قليل أنسيت؟".

سكت "عماد" رغم تردّده.

" سأفعلها، انظر وسترى".

" لكن".

" لا تخف، تابع فقط".

مدّت يدها قريبا من الحمم ممسكة بالقنّينة المفتوحة فلم يحدث شيء، أدخلتها ثمّ أخرجتها وإذا ببعض ذاك السّائل الملتهب فيها، اندهش الشّاب ممّا

رآه، بسرعة أغلقت القنّينة ووضعتها بالقرب منها ويدها سليمة معافاة لم تتأذّى من نار الحمم.

" أرأيت؟ إنّه مجرّد ديكور يخدع البصر لا العقل".

نظر فيها وابتسم، هاته المرّة كانا قريبيْن جدّا من بعضهما بحكم ضيق الكرسيّ الذي حملهما على الموج الملتهب، بسرعة أشاح كلّ واحد بصره إلى الجهة المعاكسة لمرافقه، خجلا من هذا القرب الذي جمعهما، واستحيا من هاته الوضعيّة التي أجبرتهما على الجلوس -تقريبا- ملتصقين فيما بينهما.

مرّت لحظات صمت غريب، لا تسمع فيها سوى صوت أمواج الحمم التي فرشت هيمنتها على المحيط، وحوّلت السّماء الزّرقاء إلى رماديّة قاتمة بأنفاسها الثّقيلة، كسر هذا الصّمت سؤال "عفاف":

" أحسنت صنعا، أدركت أنّ هذا العالم فيه اختلاف يمكن استغلاله لصلحنا، حلم يختلط فيه الخيال بالواقع أحيانا، لكن، أليس من المفروض أن يهدأ الجميع بمعنى الهدوء الذي نعرفه جميعا حتّى نكسب الجولة؟ كانوا خائفين مرعوبين، ورغم ذلك نجحنا، في الحقيقة لم يكن شعورهم ينمّ عن هدوء النّفس المضادّ للغضب، فما القصّة؟".

أجابها وهو ينظر في الأفق البعيد:

" ليس كلّ هدوء ظاهر هو هدوء نفس قائم، هناك من يخاف فيسكن، هناك من يرتعب فيهدأ، هناك من يغضب فلا يضطرب ولا يجزع نعم، كلّ وردّة فعله، وكلّ واحد فينا يُظهر ردّة الفعل تلك بطريقته التي تلائم شخصيّته وتوافق تجربته الحياتيّة على ما أظنّ، هؤلاء كان خوفهم سكون

وهدوء، فغلب السّكون الذي رماهم في صحراء الضّياع، وغطّى الخوف والهلع غضبهم عليّ لإدراكهم الحقيقة التي صُعقوا حين معرفتها".

" أعنيت فعلا أنّي جزء من الخطّة التي رسمها " قدر" هذا العالم فقط ليمتحنك؟".

فكّر قليلا ثمّ ردّ:

" يمكن نعم، وربّما لا، ما أنا متأكّد منه أنّني كنت المعنيّ بهذا الامتحان دون شكّ، ربّما لن أكون كذلك في المرحلة الموالية، كلّ شيء ممكن".

" ربّما نعم، غير أنّك لم تجد صعوبة كما وجدتها في المرحلة الأولى".

" المسألة ليست مسألة صعوبة تزيد أو تنقص بتجاوز مراحل عليا أم لا، وإنّما المعرفة بنقاط ضعف الخصم هي التي تجعل من مواجهتك له صعبة أم سهلة".

زفرت "عفاف" زفرة طويلة ثمّ أردفت:

" معك حقّ، فكلّما كان الخصم متكاملا كانت نقاط ضعفه مخفيّة صعب اكتشافها أليس كذلك؟".

" وهو كذلك".

" غير أنّك تشبههم في ضعفك، وهدوؤك لم يفلح في إخفاء هوانك".

يُصدم "عماد" بما قالته توًّا، لم يتنظر غير الشّكر والعرفان، وإذا بها تهاجمه من حيث لم يتوقّع.

" ماذا تقصدين؟".

" تشبهم لأنّك تخفي غضبك وخوفك بهدوئك ولا مبالاتك، أحسّ أنّك مقهور من الدّاخل، هذا الدّور الذي تلعبه، دور غير المكترث بالأحاسيس والمشاعر لا يليق بك بتاتا، في تمثيلك هذا منافذ توصل إلى حقيقتك، أنت مرهف الإحساس رغم إنكارك ورفضك، وما حصل لك في الماضي القريب أو البعيد هو ما جعلك تلغي ما هو واقع، وترفض ما هو فينا موجود منذ الأزل ولن يزول".

جحظت عيناه وهو ينظر فيها، رمقته بنظرة الأمّ المشفقة على وليدها، لكنّه لم يستجب، ولم يردّ على مقالها.

" في ذروة الخطر تخاف، تتوتّر، حينما كنت بحاجة إلى المساعدة ساعدتني ورافقتني، ذلك لأنّك أحسست بحاجتي، أنت إنسان تحسّ وترفض الاعتراف بذلك، لا مفرّ لك من الحقيقة حتّى وإن أقصيتها، ولو حاولت تجاوزها بحيلك التي لا تبرّر إلاّ شيئا واحدا لا غير...".

بقي مركّزا فيها لا يفارقها بصره، انتظر ماذا ستقول، وإذا بالحقيقة الكاملة على لسانها تظهر:

" تحاول تغطية خسائر الماضي وإخفاقاتك بكذبة تريدها برجا تحتمي فيه، ذرعًا صنعته لنفسك كقفص أنت فيه بعيد عن المواجهة والمقاومة التي تستنزف منك الإرادة والقوّة، تريد إقناع نفسك بها دون جدوى، ستكشفك الأحداث وتعرّيك الوقائع، ستستسلم لحقيقة الوجود الذي لا يحيى فيه إنسان إلاّ إذا شعر وأحسّ بجماله وقبحه، وإلاّ فلن تكون موجودا بحقّ".

قالتها بغضب، صوتها الذي انطلق بهاته الكلمات كان قويًّا مُسمعا،

أرادت أن تهزّ كيانه وتبدّل ما في ذهنه من أباطيل، بقي لحظات وهو ينظر فيها، ثمّ في القنّينة تلك التي بين يديها وفيها من مياه البحار الثّلاثة تتقلّب، أغلق عينيه ثمّ نظر مرّة أخرى في الأفق، هي تنتظر الإجابة الشّافية الوافية، بصوت خافت خالطه حزن بائن وأسى ظاهر لم يحاول إخفاءه هاته المرّة، لكنّ لسانه أبى الاعتراف وآثر مرّة أخرى الكذب على نفسه وعليها:

" لا وجود لما تقولين، إنّه عالم بائس فرغ، عالم المصلحة الفرديّة وحسب".

أدركت انّه ناقض نفسه فأفعاله أظهرت عكس ما قال، وإن كان لا يصدّق بما هو واقع وحقيقة، ففي نفسه شكّ يدفعه للعودة دوما إلى الأصل الذي يجعل من الإنسان إنسانًا رغم نكرانه، إنّه يحسّ ويشعر، ربّما يودّ مشاركة ما بداخله غيره، لكنّه يأبى ذلك ...

" على كلّ حال، أشكرك على إنقاذي، فليس من عادتي إنكار الجميل".

ابتسمت ولم تزد، فما قالته الآن كافٍ ليراجع نفسه، لن تزيد عليه أكثر فتُفسد إنجاز اللّحظة وهو الذي أنقذها توًّا وفاز بمعركته حينا، ستتركه مع نفسه يشاورها علّه يعود إلى رشده، ما يهمّ الآن هو أنّ المرحلة القادمة ستضعهم والشّعور الرّابع وجها لوجه، فماذا ينتظرهما يا ترى في هذا العالم الغريب الغامض؟

*****

الفصل الثّالث

الحبّ

لازالت تلك الأمواج تدفع الكرسيّ الحجريّ الذي طفا عليها إلى الأمام دون كلل، طبعا طبقا لقوانين هذا العالم لم يغرق الكرسيّ بمن فيه، لا داع لأن يفكّر المرء كثيرا بما يقع من أمور لا منطقيّة، وإنمّا الهمّ الأكبر هو كيفيّة اجتياز المرحلة الموالية، وهل سيكون الأمر ممكنا أم لا، ماذا سيحصل لو أخفقا؟ كلاهما فكّرا في ذلك لكن لم يجرؤ أحدهما على الإفصاح بهاته الفكرة لمرافقه، وآثرا أن يتناسياها على أن تكون احتمالا وجب الحديث فيه قبل أن يقع.

إنّه الخوف من المجهول، الخوف من الفشل، ربّما نهايتهما المتمثّلة في بقائهما في هذا العالم تكون إثر استمرار الغيبوبة وعدم قدرتهما على الاستيقاظ، يكملان ما كتب الله لهما في دنياهما يحومان في فضاء فارغ خالٍ من كلّ شيء، إلى أن يتوقّف النّبض بإيقاف آلات التنفّس تلك التي تبقيهما على قيد الحياة إلى حين، تماما كما شاهداه على التّلفاز في أفلام درامية مُبكية، ربّما نعم، يبقى احتمالا واردًا على كلّ حال.

لم يتكلّما مع بعضهما منذ آخر محادثة، ربّما هو كلام "عفاف" الذي قطع حبل الحديث بينهما، فقد كان مباشرا، حادّا وقويًّا، لربّما هي على حقّ

فيما قالته لكنّه عنيد يأبى الرّضوخ، على كلّ حال لم تعر الفتاة الموضوع اهتماما كبيرا بعد الذي قالته، هي تدري أنّ كلامها إلى غاية اللّحظة لا زال ساكنا في ذهنه يشغل باله كلّ حين، فتركته لحاله ولم تبادر بالحديث معه.

بعد لحظات تغيّرت كثافة مياه هذا البحر الأحمر الحارّ، يبدو أنّه بات أثقل وأكثف، ومال لونه إلى البنيّ، تلك الأمواج المنسابة بسلاسة صارت تدفع نفسها بصعوبة، رويدا رويدا تصلّبت وصارت كالصّخر، بلون أسود قاتم، ذاك المحيط الواسع صار أرضا سوداء بأمواج متصلّبة وكأنّها منحوتات صخريّة، تحت سماء تغيّر لونها فصارت زرقاء كما كانت، تيبّس مع تلك الأمواج الكرسيّ الحجريّ فصار جزءً من منظر يشبه مشهدا من فيلم خيال علميّ، أرض كوكب آخر، من كون ثان، أمام كلّ هاته المتغيّرات لم يعد شيء يدهش الشّابين، يمكن أن يحدث أيّ أمر في أيّ وقت، تركا الكرسيّ العملاق ذاك ونزلا، نظر كلّ واحد إلى الآخر حائرا.

" والآن ماذا نفعل؟".

" من الواضح أنّه لا طريق ظاهر ولا سبيل يوصل إلى أيّ مكان، علينا فقط بالمشي والبحث عن مخرج ".

" الأمواج المتحجّرة على مدى البصر، أرض سوداء لا نهاية لها، سيكون من الصّعب أن نجد منفذا يخرجنا من هذا الجحيم".

" لا تقلق، هناك حلّ لكلّ مشكلة اطمئنّ".

بدآ بالمشي وبصعوبة في هذه الأرض الذي طعنت بأشواكها السّوداء الأقدام، مستعدّة لتقطيعها إن لم يحذر الماشون أين يضعون الخطوة

الموالية، ببطء يتقدّمان نحو المجهول لا يدريان ماذا ينتظرهما، لكنّهما مع ذلك آملان، متفائلان رغم كلّ شيء.

....

في العالم الآخر لا زال والدا "عماد" و"عفاف" على العهد، كلّ يوم في المستشفى للطمأنينة على حالة الشّابين، لكن لا جديد للأسف، لازالا في غيبوبتهما، قيل أنّه كلّما طال أمد الغيبوبة صعُب الخروج منها، لكن وإن كان هذا الكلام صحيحا إلاّ أنّه لم يُفقد عزيمة هؤلاء الأربعة، هاته المصيبة التي ألمّت بالشّابين جمعتهم لتصير بينهم علاقة ودّ وتعاون، فمتى لم يستطع " خالد" القدوم بسيّارته أتى أبو "عفاف" وأخذهم جميعا إلى المستشفى، حتّى بالنّسبة لمواعيد الحضور، فإن غاب زوج خلفه الثّاني وأعلمه بحال ابنه أو ابنته، من الواضح أنّ العلاقة صارت إلى أكثر من مجرّد تعارف في وقت محنة.

و هما في قاعة الانتظار، كانت "لمياء" أمّ "عفاف" مع "ليلى" تتكلّمان في الوقت الذي ذهب فيه "خالد" مع "كريم" زوج "لمياء" لقضاء بعض الحوائج، بعد أخذ وردّ، وفي خضمّ حديث طويل عن الأبناء، صرّحت "لمياء":

" أتعلمين يا أختاه، رزقني الله تعالى بهاته البنت وأنا في عمر السّادسة والثّلاثين، ولم يرزقني غيرها والحمد لله، أتت فملأت عليّ الدّنيا بعد سنوات كآبة وفقدان أمل".

" سبحان المُعطي الكريم".

" سبحانه، كانت كما الدّعوة المستجابة بعد إلحاح وإصرار، حينما أتت إلى الدّنيا تغيّر فينا كلّ شيء، لم يعد "كريم" ذاك الزّوج القاسي، وكأنّها أذابت

جليده الصّلب ليطفو حنانه الذي لم أحسّ به إلاّ بعد ولادتها، حتّى أنا، كنت على الدّوام مضطربة ومنفعلة، أمر طبيعيّ بالنّسبة لامرأة في العشرين ولم تنجب بعد سنة أو سنتين من زواج لم يكن فيه خلاف ولا عداء، بل تمّ عن وفاق وألفة، حاولنا أنا وزوجي بكلّ الطّرق، سافرنا لبلدان عديدة، جرّبنا التّلقيح الاصطناعيّ، كلّ ما يخطر بالبال، حتّى التّداوي بالأعشاب، وكان أمر الله قدرا مقدورا".

استمعت "ليلى" لكلامها وكلّها اهتمام.

" بالفعل، الإنسان يريد فيجتهد ويفعل المستحيل ليصل إلى مراده، والله في عليائه كتب الكتاب وختم الأقدار بعلمه".

" لا أخفي عليك، فقدنا الأمل بعد خمس سنوات زواج، واستسلمنا للأمر الواقع، فلا أمل كبير بحسب الخبراء والأطبّاء في أن أحمل، مشكلة في المبيضين على حسب القول الذي اتّفقوا عليه".

" مفهوم".

" إلى أن كانت المعجزة وحملت دون أن ادري، وعن غفلة منّي وعن زوجي، إحساس بدوار وغثيان، تعب دون بذل مجهود، قلت في نفسي ما هو إلاّ عسر هضم أو أكل أضرّني، لكنّ الأمر طال ولم يتوقّف حتّى مع تناولي لأطعمة صحيّة وخفيفة، بعد التّحاليل الطبيّة كانت نتيجة الحمل إيجابيّة، غمرتنا فرحة لا توصف، فرحة عارمة لا يمكن أن يحسّ بها إلاّ المحروم من الأولاد لسنوات، الحمد لله على نعمه المزجاة".

" رزقكم الله بعد ظنّكما أنّ كلّ شيء انتهى، سبحان الله مغيّر الأحوال"

شعرت "ليلى" بوخز في صدرها وشوق للأولاد عاد من الماضي ليسكن حاضرها في تلك اللّحظة، غير أنّها شكرت الله تعالى على نعمة الولد الذي ربّته و"خالد"، كان ذلك كافيًا لأن تحلو حياتهما وتصير ذات معنى.

" سمّيناها على بركة الله "عفاف"، علّها تكون عفيفة الرّوح والجسد، كبرت بين ظهرانينا كما يحلم كلّ أب وأمّ، هادئة غير صاخبة، لا تبكي سوى وقت الجوع أو البلل، مرّت السّنوات والفرحة معها تزيد وتتضاعف، حتّى بلغت سنّ التمدرس".

" بالفعل تمرّ السّنوات بسرعة، على الإنسان استغلال كلّ لحظة مع أبنائه وعدم تركها للزّمن يأخذها منّا على حين غفلة".

" صدقت، لم نحسّ حتّى بلغت ستّ سنوات، بدا عليها الذّكاء المتّقد منذ صغرها، وأكّد ذلك أساتذتها في الابتدائي، كانت – ولا زالت- متّقدة الذّكاء، غير أنّها كثيرة الحركة والكلام، لازمها ذلك في مرحلة المتوسّط والثّانويّ، سبّب لها ذلك بعض المشاكل، إلاّ أنّ مستواها بقي ممتازا والحمد لله".

" الحمد لله، حفظها الله ورعاها".

" وحفظ ولدكم المصون يا ربّ".

" يا ربّ".

أضافت "لمياء":

" لم نتعب كثيرا في تربيتها والحمد لله، فقد كانت ولا تزال مطيعة تسمع الكلام وتقبل النّصح والإرشاد منّي ومن أبيها ، غير أنّ أهمّ ميزة فيها الإيثار

ومساعدة الغير".

" جميل، ونعم الميزة".

" لم نكن نحن من ذكّاها في نفسها في الحقيقة، بالطّبع كنّا نربّيها ولا زلنا على مكارم الأخلاق، لكن ليس بالذّات على الإيثار ومساعدة الغير بالقدر الذي تقوم به هي".

" حقّا؟".

" نعم، كان ذلك في يوم من أيّام الشّتاء الباردة، تأخّرنا في إيصالها إلى المتوسّطة التي كانت تدرس فيها بسبب حادث مرور أغلق الطّريق الرّئيسيّ فأخذنا الفرعيّ وكان أطول والقيادة فيه أصعب بحكم انّه ترابيّ غير معبّد، مع الأمطار والحفر زادت المشاكل وضاع الوقت، وصلنا متأخّرين بنصف ساعة، وكان يوم اختبار بالنّسبة لـ "عفاف" ".

" مشكلة بالفعل".

" حينما تحدّثنا مع المدير قبل أن تدخل وتجتاز الاختبار في الوقت المتبقّي فقط، يعني ساعة وحسب، لأنّ بعد هاته السّاعة يخرج التّلاميذ للذهاب إلى بيوتهم في الفترة الصّباحيّة، وممنوع أن يبقى احدهم في حرم المؤسّسة التّربويّة الوقت الفاصل بين الفترتين الصّباحيّة والمسائيّة، لم يسعنا سوى القبول بهذا الشّرط فما باليد حيلة، غير أنّ "عفافًا" لم تكن مرتاحة للأمر، فالاختبار هو اختبار رياضيّات، وهاته المادة يلزمها وقت وتركيز، لن يكفيها الوقت لإتمامه بالتّأكيد".

" والحلّ؟".

" أرسل الله إلينا في تلك اللّحظة ملاكًا بحجاب أبيض ناصع البياض، تلك معلّمة الرّياضيّات أتت بنفسها إلى المكتب بعدما لمحتنا نتحدّث مع المدير وقد تركت زميلتها تحرس القسم قبل خروجها، حينما رآها المدير غضب وثار، نهرها لتركها القسم وحده فشرحت له الأمر على عجالة ثمّ توسّلت له أن يترك ابنتنا تجتاز الامتحان في ساعة ونصف وهي تتكفّل بحراستها وحدها في القسم إلى غاية انتهاء الوقت، سكت لحظات ثمّ حمّلها مسؤولية ما سيقع خارج أوقات الدّوام وقبِل في الأخير".

" الحمد لله، لقد سخّر الله لها من عباده من سيكون سببا في نجاحها بالتّأكيد".

" بالفعل، بحسب قول "عفاف"، صعدت معها بابتسامة على الوجه، وبقيت معها الوقت المُستخلف، ضحّت بفترة راحتها وبقيت في القسم معها حتّى أتمّت ابنتنا اختبارها، وراجعته، وفي لحظة تسليمها للورقة شكرت أستاذتها الكريمة على موقفها الذي لا يكون إلاّ من نبع نفس طيّبة مُحبّة للخير، أتدرين بماذا أجابتها المعلّمة؟".

" بماذا أجابتها يا ترى؟".

" قالت لها:" يا ابنتي، لربّما لن أعيش بعد هاته اللّحظة، فيكون هذا الذي قمت به آخر عمل يدخلني الجنّة ... لربّما تكونين السّبب في نجاتي يا ابنتي".

بقيت "ليلى" صامتة تسمع لكلام " لمياء" معجبة بما قالته المعلّمة، كلامها دال على إيمان عميق صادق.

" بعد يومين تُوفّيت المعلّمة في حادث مرور مؤلم".

صُعقت السّامعة بما سمعت.

" الله أكبر، لا إله إلاّ الله".

" نعم تُوفّيت وبقيت تلك الذّكرى الأخيرة في ذهن "عفاف" راسخة، لم تستطع نسيان معلّمتها التي ضحّت بوقتها من أجلها، لم تستطع نسيان تلك الكلمات التي كانت بمثابة رسالة وداع، وكأنّها أحست بقروب الأجل فتركت لها وصيّة، أن تساعد الغير مهما كان الظّرف إن كانت قادرة ولا تبخل بما لديها لمساعدة الآخرين، بكت ابنتنا بكاء الأطفال على فقدان معلّمتها وأبكتنا معها، تدهورت حالتها وبقت أيّاما تفكّر فيها وتعيد ما قالته لها دون توقّف، إلى أن هدأت نفسها واستكانت بعد مرور وقت طويل شُفيت فيه من جرح فِراقها، لكن هاته المرّة مع وعد قطعته على نفسها: مساعدة الآخرين تكريما لذكرى معلّمتها، حبّا للنّاس، وسعيا لنشر الخير في كلّ مكان".

ذُهلت "ليلى" لما سمعته، وتأثّرت بالقصّة التي روتها "لمياء".

" بارك الله لكما فيها، بالفعل بنت بارّة".

ابتسمت "لمياء" ثمّ أضافت:

" نعم هذا الوعد الذي قطعته على نفسها أوقعها في مشاكل كثيرة مع صديقاتها وزميلاتها، وحتّى مع الغرباء، اعتبروا مساعدتها تدخّلا في شؤون لا تهمّها، وتلقّت النّقد والرّفض حتّى، لكنّها لم تأبه لكلام النّاس واستمرّت – ولا تزال- في تقديم ما لديها للغير دون حساب، هي حسّاسة ومنفعلة، تستسلم لمشاعرها وأحاسيسها بسرعة".

أُعجبت "ليلى" بما سمعته وقالت في نفسها:

" عكس ولدي تماما"، ثمّ ردّت عليها:

" بالفعل، على الإنسان أن يوازن بين إعطاء نفسه ما يلزم وما تستحقّ وما لغيره من حقّ عليه، فلا إفراط ولا تفريط".

" وهو كذلك، خير ما قلت يا "ليلى" ".

استمرّ الحديث بينهما، وتدفّقت الكلمات دون توقّف في مواضيع أخرى كثيرة، فالكلام ذو شجون وإذا حلا طال ...

ساعدت "عفاف" غيرها وتعدّى ذلك إلى الإيثار، ما جعلها تقع في مشاكل كما ذكرت أمّها، ولابدّ أن قفزتها على "عماد" ومحاولة إنقاذه من الموت الوشيك كان من منطلق هذا المبدأ الذي سارت على نهجه وطبّقته بحذافيره، لكن الأمّان لا تعرفان الحقيقة وتجهلان تماما كيف اجتمع الشّابان ليلقيا نفس المصير رغم تساؤل الجميع عن هاته الصّدفة التي جمعتهما.

إنّه القدر... الصّدفة لا محلّ لها من الإعراب ...

....

في العالم الآخر مشيا، حتّى تعبا من المشي وكاد نفسهما أن ينقطع، لا جديد في الأفق، نفس المنظر يتكرّر على المدى المجهول.

" وماذا بعد الآن؟ أنستمرّ في المشي دون هدف؟".

" وماذا نفعل غير المشي والبحث عن ملجأ أو طريق يخرجنا من هذا المكان إلى آخر؟".

" والله صبركِ صبر جمل".

" ليس باليد حيلة".

يستمرّان في قطع هاته الأرض الحزينة، الأرض السّوداء المخيفة والتّعب مهلكهما، حتّى تراءى لـ "عماد" شيئ هناك، هناك بعيدا وكأنّه كرة عملاقة.

" انظري هناك، أترين هذا؟".

" ماذا؟".

" تلك الكرة هناك".

تقترب منه بعدما كانت متأخّرة عنه، تمعن النّظر في الأفق، ما قاله صحيح، كرة كبيرة بالفعل هناك، ربّما مبنى، ابتسمت ونظرت في عماد وقالت:

" جميل، لنكمل طريقنا ونرى، ربّما نجد المساعدة هناك".

تشجّعا وأسرعا الخطى نحو تلك الكرة العملاقة، بعد مدّة اقتربا منها وبدا واضحا أنّها ليس كما اعتقدا، ليست مبنى أو ما شابه، بل ...

" إنّه منطاد ... وهذان من يكونان؟".

" لم أفهم ماذا يفعلان وسط هذا الخلاء؟".

كان منطادًا مستعدّا للإقلاع، منطاد أسود بجانبه شخصان واقفان، يبدو وكأنّهما ينتظران أمرا، أو شخصا، اقتربا أكثر منهما فوجدا الأوّل مقبلا عليهما وعلى وجهه بشاشة غير مفهومة، الآخر بقي جانب المنطاد يراقب، من بعيد بدا غاضبا أو كارها لرؤيتهما، المهمّ انّ الأوّل بادر بالكلام قبل أن يسألاه:

" وأخيرا أنتما هنا، مرحا بكما في رحلتنا المجّانيّة على متن منطادنا ".

نظر أحدهما في الآخر متعجّبيْن.

" لكن من أنتما؟ ولماذا هذا المنطاد هنا؟" سألت "عفاف" هذا الرّجل الأسمر البشوش الذي لم تفارقه الابتسامة منذ الوهلة الأولى التي رأياه فيها.

" إنّها "إرادة هذا العالم"، كان من المقدّر عليكما أن تلتقيا بنا، بالطّبع بعد نجاحكما في المرحلة السّابقة".

تدخّل "عماد":

" تقصد "القدر" الذي ساقنا إليكما، بتعبير أصحّ".

" وهو كذلك نعم".

أخذت "عفاف" الكلمة:

" يعني لكي نستمرّ أو نمرّ إلى المرحلة الموالية علينا بالصّعود في هذا المنطاد والتوجّه معكما للمكان المطلوب أليس كذلك؟".

" تماما كما قلتِ".

نظرت في "عماد" وقالت:

" إنّه المسار الذي خُطّط لنا أن نتّبعه يا "عماد"، وجدنا المنفذ، وعلينا الاختيار".

أغمض "عماد" عينيه وردّ:

" وهل بيدنا خيار آخر؟ فالنصعد، على كلّ حال إن بقينا هنا نمشي على الأقدام فلن نصل إلى أيّ مكان وسنضيع بالتّأكيد".

ضحك الرّجل الأسمر ورحّب بهما مرّة أخرى، فتح الثّاني باب المنطاد

ذاك، هذا الرّجل كان عكس الأوّل، على وجهه ملامح القسوة، وكأنّه غير راضٍ بصعودهما على متن المنطاد، وكأنّه مُجبر على ذلك، فتح لهما الباب دون أن يرى فينا، صعدا دون أن يحيّياه، تجاهلاه تماما فلم يحفل بذلك، انطلق بهما "الأسمر" سريعا إلى السّماء فعانقناها عناق المشتاق هاربيْن من جحيم تلك الأرض، كم كان المنظر بديعًا من فوق، تلك الأمواج السّوداء المتحجّرة كأنّها أشواك لامعة، وكأنّ ذاك البساط الممتدّ شعر حسناء أسود استطال فأبى أن ينتهي، هنا هما أقرب إلى السّماء من أيّ مكان، فإذا مدّا يديهما لمسا الفضاء وأحسّا ببرودته، الرّياح قويّة في العلوّ دفعتهم سريعا إلى الأمام، إلى الوجهة الموالية.

" فعلا أنا معجب بكما، بشجاعتكما وإقدامكما، وخصوصا بإصراركما على الاستمرار، لو كان ثالثنا معنا الآن لرحّب بكما أشدّ ترحيب هو كذلك ".

" أنتم ثلاثة؟ أين ثالثكم؟" سألت "عفاف".

" هو يخاف من المرتفعات، خشي أن يركب على متن المنطاد فآثر البقاء، لكنّه أوصاني أن أوصل إليكما تحاياه ".

يا لدهشتهما بهذا الكلام الذي سمعاه، أدخل على نفسيهما السّرور والسّعادة، غير أنّ ذلك لم يدم طويلا، فقد قاطع تلك اللّحظات ذاك "الغاضب" وهو يعدّل موقد المنطاد قائلا:

" لا تفرحا كثيرا، فالقادم أدهى وأمرّ".

قالها ونظرة الكره والبغض موجّهة لهما، تلك الكلمات هزّت في نفسيهما شيئا، لم يرتاحا لما قال، غير أنّ "البشوش" طمأنهما قائلا:

" لا تقلقا، هو هكذا دائما، متشائم كاره لكلّ أمر".

تلك النّظرة الحادّة وشكله المخيف، طوله وصلعه، قوّته الجسديّة، كلّ هذا يجعل النّاس منه يفرّون، عكس هذا الرّجل القصير القامة، الوافر الشّعر منفوخ البطن، المبتسم على الدّوام، فعلا القلوب تتقارب بالألفة وتتنافر بالغلظة.

" انظروا ... ها هي وجهتكما الموالية".

نظرا إلى تحت فرأيا برجا عاليا يكاد يلامسهما، وسط العدم الأسود، وحده وكأنّه موجود منذ الأزل قبل أن يضرب البحر الأحمر المكان وقبل أن يتيبّس، إنّه برج حجريّ تشبّثت به شقوق قديمة، وتعلّقت به نباتات صاعدة، من هذا العلوّ يبدو ضخما، لا بدّ وأنّ بناءه كلّف جهدا ووقتا، بجانب هذا البرج العالي بحيرة زرقاء جميلة، حولها بعض الخضرة التي اشتاق الشّابان لرؤيتها، استغربا من الأمر، فسأل "عماد" "الأسمر":

" أهذه هي محطّتنا الموالية؟".

" نعم هي".

" تلك البحيرة، هي بحيرة ماء أليس كذلك؟".

" ماء صافٍ لا وجود لمثله في هذا العالم".

تدخّلت "عفاف" وسألت:

" أليس من الغريب أن تتواجد هذه البركة هنا وبماء صافٍ وسط هذا العدم؟ ماؤها صافٍ نقيّ وحولها نباتات خضراء، كيف حدث هذا؟".

بقيت تنظر في "حادّ المزاج" وتنتظر، أحسّت بشيء غير طبيعيّ يحاك في

الخفاء، توتّرت واضطربت، نظرت في "عماد" نظرة حيرة وقلق، هذا الأخير لم يفهم قصدها ولم يستطع تفسير تلك الإشارة.

في تلك اللّحظة قفز "الأسمر" على "عماد" وطوّقه من الخلف ثمّ سدّ فمه حتّى لا يتحرّك ولا ينطق، ارتعبت "عفاف" وصرخت:

" ماذا تفعل؟".

ردّ "البشوش" مبتسما:

" آسف، هذه هي الأوامر".

" أوامر؟ أوامر من؟".

" لا دخل لك".

حاول "عماد" الإفلات منه لكن دون جدوى، بقي يصارع "الأسمر" القويّ لحظات و"عفاف" جامدة في مكانها لا تدري ماذا تفعل.

" ماذا؟ ألن تساعديه؟" قالها "القاسي" بلهجة استخفاف، غضبت فهوت على "الأسمر" تضربه وتخدشه دون أن يتأثّر، كانت أضعف من أن تصيبه بأذى أو تؤثّر فيه، ضغط " حادّ الطّباع" زرّا ففُتح باب أسفل سلّة المنطاد التي حوتهم، وكان بجانب الفتاة تماما، كادت أن تسقط لولا أنّها تمسّكت بالحوافّ، لكن " البغيض" لم يترك لها الفرصة لتعتدل، اقترب أكثر منها ودفعها بقدمه نحو "الحفرة" دفعا قويًّا صارخا في وجهها:

" إلى الجحيم".

لم يترك لها فرصة ثانية للتّشبّث، فاختلّ توازنها وسقطت، لحظتها لم تحسّ بشيء، اخترقت الهواء وسقطت سقطة نقلتها في ثانية من الجوّ إلى

الماء، اخترقت البركة حتّى وصلت إلى القاع ثمّ رويدا رويدا عادت لتطفو، من حسن حظّها أنّها لم تفقد الوعي وتمكّنت من جرّ نفسها خارج البركة.

" يا إلهي ماذا حدث؟".

الصّدمة تلك أفقدتها بعضا من ذاكرتها لدقائق، ثمّ استعادت وعيها بعدما وقفت أمام هذا البناء العظيم الذي هيمن بعلوّه وبسط ملكه على كلّ موجود، بالفعل برج عظيم، وكأنّ لا نهاية له، وكأنّ قمّته اجتازت السّماء واخترقت بطن الكون.

" خطفوه، أخذوه وأبقوني وحدي هنا".

تأمّلت نفسها فكانت مبلّلة رثّة الثّياب في حالة يرثى لها، لكن ليس هذا ما حزّ في نفسها، المصيبة أنّها أدركت أنّ هذه المرحلة متعلّقة بها فقط، إنّه امتحانها هي، جاء الدّور عليها كما تنبّأ بذلك "عماد"، ما عساها تفعل الآن؟ كيف ستجتاز هاته العقبة وقد غاب السّند، لا تدري أصلا ما الذي سيحصل له، اختلطت الأمور عليها وهيمن الخوف والفزع على نفسها، لم تألف مواقف كهاته، ولأنّها مرهفة حسّاسة شعرت بالوحدة والجزع فور وجودها وحدها، رغم شجاعتها وإقدامها، رغم مبادرتها الدّائمة لمساعدة الغير إلا أنّ هاته المرّة كان الأمر مختلفا، حان الوقت لأن تفكّر فقط بنفسها وكيف تخرج من هاته الورطة وحدها دون الاتّكال على الغير، آن الأوان لأن تستجمع طاقتها وتستثمر ذكاءها وحسن تدبيرها في المضيّ قدما والنّجاح في هاته المرحلة علّها بنجاحها تنقذ زميلها المفقود بطريقة أو بأخرى ...

لا يفيد الهلع شيئا الآن، رغم خوفها الدّفين من الوحدة، اقتربت بخطى

حذرة من جدار البرج هذا، وإذا بفجوة فيه كبيرة دون باب، الظّلام بالدّاخل حالك، تشجّعت وقامت بالخطوة الأولى داخله، وإذا بشعلة نار تلتهب وتنير المكان، جزعت وعادت للخلف، وإذا بالشّعلة تكلّمها:

" لا تخافي ... أنا هنا فقط لبعث النّور لمن ولج هذا البرج، لا بدّ وأنّك تبحثين عن "الحكيم" ".

لم تفهم "عفاف" المقصود، أصلا أن تحدّث شعلة نار أمر يبعث على الجنون، لكنّه عالم فيه كلّ شيء ممكن، لذا لعبت الدّور وتقمّصته:

" نعم أبحث عن "الحكيم" ".

" إنّه في الأعلى، اتبعيني، اصعدي هاته الأدراج المقابلة لك وانتبهي، كوني حذرة".

إنّها أدراج حجريّة عالية في حالة يرثى لها، تكاد تسقط بمجرّد ملامستها، لكن لا حلّ آخر سوى صعودها، رافقتها الشّعلة وأنارت لها السّبيل نحو الأعلى، و"عفاف" تصعد بحذر وفي نفسها ألف سؤال وسؤال ...

ما الذي حلّ بـ "عماد"؟

ما الذي سأواجهه الآن؟

أيمكنني أن أنجح وحدي؟

و إن لم أتمكّن من اجتياز هاته المرحلة، فماذا سيحصل بعدها؟

سنضيع في هذا العالم؟ أحقّا سنضيع أنا و"عماد"؟

ما العمل؟

...

صعدت والخوف تزايد، صعدت والثّقة في نفسها اهتزّت، إلى أن وصلت أمام باب حديديّ بالكاد تلقّفته، فلولا الشّعلة تلك لما رأت شيئا.

" ادفعي الباب وادخلي، ستجدين "الحكيم" بانتظارك".

" وحدي؟".

" نعم وحدك، هو اختبارك يا "عفاف" ".

بدهشة :" وتعرفين اسمي؟".

" لا تسأليني كيف ولماذا، فتلك من قوانين هذا العالم".

تصمت لحظة الشّابة ثمّ تضيف:

" حسنا سأدخل".

"إن أفلحت سنلتقي مجدّدا، بالتّوفيق".

" انتظري ...".

تلاشت الشّعلة في لمح البصر فقد التهمها الظّلام سريعا ولم يترك لها نفسا تضيء به لثوانٍ أخرى، بسرعة دفعت الشّابة الباب خوفا من البقاء في حضنه البارد المخيف، وإذا بقاعة واسعة مضيئة، رخاميّة الأرضيّة والأعمدة، سقفها مذهّب وبزخارف منقوشة وملوّنة، رائعة الجمال، تشبه الزّخارف الإسلاميّة التي نجدها في المساجد والقصور، هاته القناديل بمختلف الأشكال والأحجام متناثرة تناثر الشّموس في كون بديع، رائحة الياسمين ملأت المكان، مشت في هذا الصّرح فشعرت ببرودة في قدميها حتّى

ركبتيها، وبانتعاش غير طبيعيّ في قاعة ذات نوافذ استطالت على الجدران كأنّها تحفّ فنّية مرسومة لطبيعة خلاّبة بشلاّلاتها وأنهارها وبحارها، غابات وجبال وصحاري، إبداع لا مثيل له، جحظت عيناها من فرط الدّهشة والإعجاب، إلى أن صادفها من انتظرت ملاقاته، إنّه "الحكيم".

كان شيخا طاعن السنّ متعب الملامح، حفرت فيه التّجاعيد عميقًا دو رحمة، على رأسه بقيت بعض الشّعيرات البيضاء، وعلى ذقنه بقايا لِحية مجعّدة، نحيف نحيف، على جسده الضّعيف إزار ملتفّ كأنّه كفن، جالس وسط القاعة العظيمة على ركبتيه، اقتربت منه على استحياء، حياء خالطه خوف غير مفهوم، تنبعث منه طاقة مختلفة، جاذبة ومنفّرة مرّة واحدة، ليس هذا فقط، كان هذا الشّيخ أعمى، بان ذلك من بياض عينيه.

قبل أن تبادره سبقها فاستفتح قائلا:

" كنت منتظرا قدومك، أخباركما في هذا العالم انتشرت كما انتشار النّار في الهشيم".

اضطربت قليلا ثمّ تمالكت نفسها وردّت:

" وهو كذلك، أنا المعنيّة بهذا الاختبار".

" أوَ تدرين أنّك لو تمكّنت من تجاوزي في هاته المرحلة سيُقضى عليّ؟ لن أصبح سوى ذكرى عابرة في نفس من لاقاني، وفي نفسك أيضا سيبقى شبحي ساكنا قلبك وعقلك يا ابنتي، أوَ ترضيْن ذلك لشيخ شارف على الموت وقد عجّلت أجله؟".

صُعقت من قوله وصُدمت، تصارعت المشاعر في نفسها واختلطت، لا

تدري الآن بماذا تشعر في الحقيقة، بالغضب؟ بالشّفقة اتّجاهه؟ بالنّدم لأنها وصلت إلى هاته المرحلة؟

بالفعل لا تدري ... ربّما بالخوف ممّا سيأتي ...

بالضّياع ... نعم بالضّياع.

حزنت لما قاله وبدا ذلك واضحا على وجهها، استغلّ الشّيخ الفرصة وأكمل:

" أمثّل "الحبّ" يا ابنتي، الحبّ الذي يُبقي النّاس على قيد الحياة، الذي يجمع المختلفين ويوحّد كلمة الإنسانيّة على رأي واحد، أمثّل "الحبّ" الذي رافق الأزمنة والأوطان، الذي سافر في القديم فعاش الأفراح ولملم جراح الأحزان، "الحبّ" الذي عاصر هذا الجيل، وأنت أدرى بمعنى الحبّ والوئام، وسيعيش ليواكب الأجيال القادمة والتي تليها بعد فوات هذا الجيل والذي بعده، أتقفين ضدّ ما يرغبه الجميع؟ أتمنعين نفسك وغيرك فيما هو محبوب ومطلوب؟ أيرضيكِ ذلك؟".

زاد توتّر الفتاة لما سمعته مرّة ثانية، تذكّرت أمّها وأباها، تذكّرت معلّمتها التي أوصتها بمساعدة الآخرين وقت الحاجة إن استطاعت، ستخون عهدها الذي قطعته على نفسها إن حاربت "الحبّ" الذي يمثّل كلّ ما تشعر به اتّجاه الأقربين، بل هو الشّعور الذي تكنّه لكلّ النّاس وبه تعيش.

لعب الشّيخ الماكر على وتر المشاعر حتّى استلطف قلبها وأخضع ذاتها لما يريد من الوهلة الأولى، بات الفوز عليها قضيّة وقت ليس إلاّ، بل حتميّة لا مفرّ منها.

" إذن ماذا قرّرتِ يا ابنتي؟ تحاربين "الحبّ"؟ أم تتركينه يعمّ هذا العالم فيعيش الكلّ بسلام؟".

نظرت فيه والحيرة مستولية عليها، ماذا تفعل؟ بماذا تردّ؟

بقيت كذلك لحظات ...

ثمّ تذكّرت "عماد"، هذا الشّاب الذي أنقذها حينما خطفها أولائك "الزّرق"، ثم رافقها وساعدها حتّى انتهت محنة الاختبار، أتتركه لقدره؟ أتستسلم وتنساه؟ أتستطيع ذلك؟ أيمكنها أن تتناسى وجوده وتضع مبادئها وآمالها وأحلامها في عالم مليء بالحبّ والاحترام قبل حياة هذا الشّاب؟

فكّرت سريعا في حلّ، في مخرج، في زاوية آمنة تركن إليها، فالموقف بالفعل صعب، والخروج سالما من هاته المواجهة تستلزم حنكة وذكاءً كبيريْن.

بعد دقائق صمت ...

و تفكير نافذ دقيق ...

استعادت " عفاف" شيئا من ثقتها وشجاعتها، هدأت قليلا وزال عنها الهلع والخوف، أحسّ الشّيخ بهذا الهدوء من نسمات الهواء التي حوله، من سكون الكون الذي احتضن الفتاة فجعلها جزءً منه، هذا ما خشيه، قرّر التدخّل مرّة أخرى ليعيد الأمور إلى نصابها، فإن تحكّمت في نفسها ومشاعرها الآن انتهى أمره وقُضي عليه.

" ماذا قرّرت؟ أتحاربينني بسلاح الكره تريدين إقناعي به رغم استحالة ذلك وتتمرّدين على قانون العالم الأوحد؟ أتحاربينني بالكره لتتغلّبي على الحبّ؟".

هاته المرّة لم تنزعج، لم تضطرب، بقيت ساكتة تسمع كلامه بتمعّن.

" أتحاولين إقناعي بضرورة أن نكره ونترك الحبّ الذي به تبنى كلّ العلاقات؟".

لم تردّ، بقيت صامتة.

بدأ الشّيخ ينزعج من ردود فعلها غير الطّبيعيّة، لكنّه أحجم عن محاولاته أخيرا وترك المجال لها فصمت بدوره وانتظر، بعد لحظة قالت:

" بلى سأدوس على مبدئي الذي سرت عليه في سبيل إنقاذ حياة رفيق لم ينتظر لحظة لينقذني، إن لم أفعل ذلك فسأكون خائنة مقصّرة في حقّه، ردّ الجميل من المروءة أيضا".

لم يفهم الشّيخ ما قالته، فاستفسر:

" عن ماذا تتكلّمين يا ابنتي؟".

" لا دخل لك، المهمّ أنّ " الحبّ" الذي تتغنّى به ليس الشّعور المهمّ والوحيد في دنيانا هاته، نحبّ خالقنا، والدينا، أصدقاءنا، نحبّ أزواجنا وأولادنا، نحبّ عملنا وغير ذلك من الأمور التي تستوجب الحبّ لتبقى، لكن هل من المعقول أن يستمرّ العالم في الوجود إن أحببنا وقبلنا كلّ شيء؟ أمِن المعقول أن نعيش نحن البشر محبّين لكلّ شخص وأمر؟ هكذا نقبل كلّ شيء دون تمييز وتمحيص؟".

" ماذا تقصدين؟".

" أقصد أنّ الحبّ يلزمه كره حتّى يثبُت ويستمرّ، فإن أحببت الخير فمن اللاّزم أن تكره الشّر وإلاّ وقعت فيه بحكم قبولك لكلّ شيء، وإن أحببت

الصّدق فمن الواجب أن تكره الكذب ليستحكم الصّدق في نفسك ولا تقع في نقيضه، إن رمت السّعادة فمن الضّروريّ أن تكره الحزن، لأنّه نقيضه، يعني بالمختصر المفيد، إن لم تكره فلن تعرف من تحبّ وما تحبّ".

وقع تلك الكلمات كانت كالرّصاص القاتل، لم ينتظر الشّيخ من الفتاة ردّا حاذقا كهذا، بقي مضطربا صامتا لا يدري كيف يردّ عليها، هي أحست بعجزه، وأدركت أنّها في طريقها لقلب موازين هاته المواجهة.

" الأمور بنقيضها تُعرف، لن يستقيم المرء حقّ الاستقامة إلاّ إذا عرف معنى الاعوجاج فتفاداه، لن يطلب العلا ويختار التميّز إلاّ إذا ذاق معنى الفشل ومرارته وأدرك حقّ الإدراك أنّه سيبقيه في الدّرك الأسفل، لن يفهم معنى الاحترام إلاّ إذا فهم الاحتقار ومخلّفاته، لن يتبنّى الإنسان معنى الحبّ الحقيقيّ في حياته إلاّ إذا كره الشرّ والنّميمة والغيرة والأنانيّة ... عليك أن تكره لكي تحبّ ... هما وجهان لعملة واحدة".

لم تترك له منفذا يهرب منه، بدأت نفسه تثور لإحساسها بقرب خسارتها أمام هاته الفتاة، فتوتّر وأراد أن يردّ، لكنّها سبقته بقولها:

" لن تحبّ حقّ الحبّ حتّى تكره كلّ ما يلغيه، وإن لم تفعل ذلك فلست أبدا بمحبّ، وإنّما حبّك المزعوم لكلّ شيء واجهة تقنع بها صغار العقول، وتبهر بها من اتّبعوك دون فقه وعلم، هذه هي الحقيقة، لن تستطيع إنكار شعور "الكراهية" لأنّه موجود، ولأنّه يعمل في الجهة المعاكسة للحبّ، فكلّ موجود مع الآخر بالضّرورة وكلّ شعور يعمل عكس عمل نظيره في نفس الوقت، ربّما يتناقضان نعم، لكن في حالات كثيرة يتكاملان كما شرحت".

كانت الضّربة القاضية التي أسالت العرق البارد لهذا الشّيخ الذي لم يجد إلاّ بعض الكلمات يردّ بها على "عفاف":

" أمقتك أيّتها الصّغيرة، أكرهك بالفعل، كيف بفتاة في مثل عمرك تواجه شيخا قضى عمره على عرش الحبّ وتفوز؟ ألف سنة ولم يتمكّن أحد من كشف الخدعة التي انطلت على الملايين من أمثالك".

ردّت مبتسمة:

" لأنّها خدعة كما أقررت، ولأنّ الكره موجود، نطقت به في لحظة حقيقة صافية خالية من الأكاذيب، شعرت فعلا بالكره نحوي، أليس كذلك؟".

لم يعد هناك شيء ليخفيه فأقرّ:

" نعم شعرت به وعبّرت عنه".

" وهذا الذي يجب أن يتجنّبه البشر، وينقضونه بالحبّ والوئام يا من دافعت كذبا عن الحبّ".

في تلك اللّحظة انفجرت من الشّيخ ينابيع ماء ورديّ زكيّ الطّلعة، اندهشت من ذلك، ولأنّ الوقت لا يسمح أسرعت بالقنّينة إليه وملأتها ببعض هذا الماء لتصير أربعة ألوان فيها لا تمتزج، أغلقتها ونظرت فيه، زادت الينابيع وخرجت منه من كلّ جانب، صارت قويّة، فأقوى، ثمّ أقوى بكثير، أدركت الفتاة أنّ الأمر سيخرج عن السّيطرة بعد قليل فهربت نحو الباب، لكنّه انفجر أخيرا ولم يترك لها دقيقة أخرى لتنزل الأدراج، عمّت المياه القاعة وفجّرت جدران البرج، فتهاوى رويدا رويدا من أعلى إلى أسفل بفعل الفيضان الورديّ، واستقرّ أحجارا وركاما على الأرض بسرعة، انهار كما قطع ألعاب

التّركيب، وكأنّه لم يكن، غابت البركة تلك تحت الأحجار المتساقطة فلم يصبح لها أثر، واستمرّ الماء ذاك في الخروج من كلّ مكان وليس فقط من جثّة ذاك الشّيخ، وكأنّما الحبّ عدوى انتقلت إلى هذا العالم المسودّ فصبغته، لم تستطع "عفاف" المقاومة، جرفها الفيضان وهي تصرخ وتستغيث، لكن دون مُغيث.

غمرها الماء وغرقت فيها، وقبل أن تفقد الوعي شهدت صورة الشّاب أمامها وهو يمدّ يده إليها محاولا إنقاذها كما فعل من قبل، مدّت يدها نحو علّه ينقذها وتنجو كما نجت في الأوّل، لكنّه لم يكن غير خيال تخيّلته.

أغمضت عينيها حزينة ...

إنّها النّهاية ...

لم تستطع أن تقاوم أكثر، وللنّفس قدرة محدودة ...

امتزجت دموعها بماء الفيضان هذا الذي صار بحرا ورديًّا جميلا ...

دموع هي رسالة علّها تصل لمن أنقذها من قبل ...

أنّي لم أنسك ... ها قد حاربت من أجلك ...

فتذكّرني أينما كنت...

أنا "عفاف" الرّاحلة دون عودة.

*****

الفصل الرّابع

إعجاب، كره وخوف

كانت رحلة في فراغ مجهول، فتحت عينيها رويدا رويدا، فوجدت نفسها ملقاةً على ثلج أبيض ناصع، اهتزّت واعتدلت سريعا، هضاب من ثلوج غطّت كلّ ما وقع عليها بصرها.

" أين أنا؟".

سألت نفسها في ذهول، لم تنتبه لوجود "الشّعلة" بقربها، حتّى كلّمتها:

" الحمد لله أنّك استيقظت، بماذا تشعرين؟".

" بالبرد، أين أنا؟".

" أنتِ في "أرض البياض" الباردة، قبل "مدينة النّهاية"، المدينة التي ستكون أخر محطّة لكما، أنت وذاك الشّاب".

تلتفت يمينا ويسارا، لا وجود للون آخر غير الأبيض، وهاته النّسمات الباردة التي ترتجف منها الأجساد، شكّلت لوحةً فنيّة مع السّماء ذات السّحب الرّماديّة، سحب مدّت أياديها إلى الأرض فكادت تلامسها، لكنّ هذا الفضاء مخيف، يبعث الوجل في النّفوس، الفراغ، اللاّشيء، الوحدة في هذا المكان كمن ضاع في كون دون دليل.

" لكن كيف وصلت إلى هنا؟ ماذا حدث؟".

تذكّرت في تلك اللّحظة القنّينة، وكذلك الرّسالة، بحثت عنهما سريعًا في تلافيف ثوبها من الدّاخل فوجدتهما مشدودتين بإحكام، لم تتذكّر كيف ربطتهما، ولم تبحث كثيرا، المهمّ أنّهما هنا فتنفّست الصّعداء.

" جرفتك مياه "الحبّ" الورديّة خارج القلعة المنهارة، لم تستطيعي مقاومتها، فقد رأيتك تغرقين فيها، اجتمعت فتوالدت لتصير بحرا تلاطمت أمواجه فبسط سلطانه على أرض السّواد، اخترقت الأعماق ولففتك بناري داخل كرة حميتك بها، ثمّ طرت بك خارجًا، وبعيدا أيضا، حتّى وصلنا إلى هنا".

" كنت معي طوال الوقت؟ حتّى خلال اختباري مع الشّيخ؟".

" بعيدا نوعا ما، قلت لك أنّنا سنلتقي مرّة أخرى إن تمكّنت منه، وكذلك كان الأمر".

" مشكورة".

" هذا واجبي، ودوري في هذا العالم".

"أشعر بالبرد يتغلغل في عظامي ويسكن فيها، وأنا بهاته الثّياب الرثّة التي لا تقيني شرّ نسمة الرّيح".

" لا تقلقي، سأدثّرك بناري فتدفئين".

لفّت الشّعلة "عفافًا" بنارها التي لم تحرقها، وإنّما جعلتها تستعيد نشاطها من جديد بفضل هذا الغطاء الدّافئ.

" اتبعيني، سأوصلك إلى أقرب مكان من الاختبار الأخير".

انطلقت الشّابة رفقة الشّعلة ماشية خطوة تلو الأخرى، غاصت أقدامها عميقا في هذا الثّلج الذي التهم الألوان والأشكال، ومع مشيها تركت أثرا لها واضحا وعميقا بفعل الحرارة التي طوّقتها، مرّة على مرّة تنظر فيها الشّابة وتبتسم، ثمّ ترتسم على وجهها علامات الحزن، تكرّر الأمر فاستغربت الشّعلة من تصرّفها ، سألتها:

" ماذا بك؟".

ردّت وفي صوتها ثقل:

" كيف أجتاز آخر عقبة دونه".

" تقصدين الشّاب؟".

" ومن غيره، بدأنا سويًّا ومن المفروض أن ننهيه سويّا، الآن اختُطف كما حصل لي من قبل وفرّقنا هذا العالم عن بعضنا، لا أدري ما إن كنت سألتقيه مرّة أخرى أم لا".

" لا تقلقي بهذا الشّأن، ستلتقيان وتجتازان الاختبار الأخير مع بعض".

تستبشر "عفاف" وتزهر على وجهها ابتسامة ولا أجمل:

" وكيف تعرفين ذلك؟ أهذا ما يريده "قدر" هذا العالم؟".

" لن أخبرك بالمزيد، فقط تأكّدي من أنّك ستلقينه، وسواء أنجحتما أم فشلتما، فستكملان المرحلة الأخيرة مع بعض، بشرط".

" وما هو؟".

" أن تبحثي عنه أوّلا في المدينة، عليك أن تجديه قبل اجتياز العقبة

الأخيرة".

صمتت "عفاف" هنيهة ثمّ قالت:

" يعني اختبار قبل اختبار".

" إن شئنا القول نعم".

" سيكون الأمر صعبًا بالتّأكيد".

" ربّما، حسب معرفتك به".

" وكيف ستفيدني معرفتي به لإيجاده؟".

" ساعدتك قليلا، فلا تطلبي المزيد".

" حسنا حسنا، أنت محقّة، فهذا العالم له نظام وقوانين".

" تماما".

" كنّا مجبرين على ركوب ذاك المنطاد، لا سبيل آخر للوصول إلى البرج، ولو أكملنا مشيا على الأقدام لهلكنا، لكنّ المختطفان غدرا بنا، لم نتفطّن لهما سوى متأخّرين".

" اثنان فقط؟".

" قال أحدهما، رجل أسمر، أنّهم ثلاثة، أحدهم لم يأت لخوفه من المرتفعات".

" ربّما هم أعوان من ستلقونه في مواجهتكم الأخيرة".

" أيّ فكرة عن هذا الذي سنواجهه".

لم تجبها الشّعلة، تدرك أنّ الأمر صعب ولا يجوز الحديث عنه، لكن

الغريب في الأمر هو أنّ عدد المواجهات الباقية وبشكل منطقيّ سيكون ثلاثا، جمعت في القنّينة التي بحوزتها شيئا من أربعة أبحُر، وتبقى ثلاثة بحسب ما جاء في الرّسالة، أيمكن أن يجمع هذا "الغريب" ثلاثة مشاعر مرّة واحدة يقلّبها كيفما شاء في الدّفاع والهجوم؟ يمكن نعم ولمَ لا؟

و هي تمشي وتفكّر مرّ الوقت بسرعة، تقطعان تلك الأراضي بثقة وثبات، أجابت الشّعلة عن بعض الأسئلة التي طرحتها "عفاف" بإلحاح، لكن بحذر ودون كشف خبايا ما سيكون بعد تخطّيهما التّلال الثّلجيّة هاته.

من بعيد تراءت ناطحات سحاب كأعمدة سوداء مدّت أعناقها في السّماء، وتحتها مبانٍ صغيرة حاولت اللّحاق بالكبيرة لكن هيهات، هيهات أن تتطلّع إلى ما هو أعلى وأقوى، وقفت "عفاف" على آخر تلّ قبالة هذا المنظر، إنّها أرض مسطّحة واسعة ترابيّة، لا شيء فيها، خالية، في آخرها ترامت بعض المنازل المنفردة، لتجتمع تلك المنازل وتنمو نموّ الأشجار الباسقة، أكملت الشّابة سيرها رفقة الشّعلة لمدّة من الزّمن، باتت المباني الان تستطيل في العلوّ وتتسابق فتتداخل دون عمد فيما بينها، لتشكّل هذا العمران الغريب العجيب، وكأنّ النّاطحات تلك تشابكت كما تتشابك أصابع اليديْن، هاته في الأخرى، تنفصل وتتّحد، تدخل في بعضها وتخرج من بعض، هندستهما غير مفهومة، لكنّها رائعة التنسيق فريدة المظهر، إنّه مدخل المدينة، بدأ الثّلج في الهطول، من سماء دنت حتّى اخترقت رؤوس النّاطحات تلك، زاد البرد ومعه الرّيح، في هاته اللّحظة انفصلت الشّعلة عن "عفاف" وأخبرتها بما لم ترد سماعه:

" انتهت مهمّتي للأسف، مضطرّة لأن أتركك هنا وأذهب".

" بهاته السّرعة؟".

" قضينا وقتًا لا بأس به مع بعض".

" لكن ... لكن وحدي لا أستطيع أن ...".

قاطعتها الشّعلة:

" هذا اختبارك، تحمّلي المسؤوليّة أو استسلمي، بيدك دومًا الخيار، أمّا أنا فمُجبرة على تركك، إنّها حتمية قدر هذا العالم".

استاءت "عفاف" لما قالته، غير أنّ هذا الأمر كان منتظرا، فقط هي أرادت كسب المزيد من الوقت والهروب من الوحدة بأيّ طريقة.

" تذكّري ما قلته لك، عليك بالبحث عنه، ستجدينه متأكّدة من ذلك".

" إن شاء الله، وشكرا على مرافقتك وتوجيهك، ممتنّة لك".

" لا شكر على واجب، اعتني بنفسك، وبه أيضا".

لم تنتظر أن تسمع هذا منها، وكأنّها قرأت بعض الذي خالج قلبها وروحها، أدركت الشّعلة أنّ الشّابة تهتمّ لأمر الشّاب ليس فقط لأنّه شريك وجبت عليه أيضا مهمّة إخراجهما من هذا العالم المقيت، بل لأنّه إنسان مثلها، جذبتها إليه شخصيّته الغامضة وأحاسيسه المتناقضة غير المفهومة.

تلاشت الشّعلة في الفضاء فلم يبق لها أثر، إنّها الآن وحيدة، تشجّعت ومشت ساعة في تلك الأرض العارية، أرض امتدّت كلّما أُريد تخطّيها، بصعوبة وصلت فاخترقت أوّل حدّ، "البوّابة"، كان المدخل دون باب على كلّ حال، مجرّد قطع خشبيّة سوداء داخل ركام رماد تشبّع بالماء، دخان متصاعد دلّ على أنّ الباب الخشبيّ أُحرق بعد إزالته من مكانه، لا بدّ وأنّهم أولائك الثّلاثة،

هم سبب هذا الدّمار، هذا ما اعتقدته "عفاف" وهي تخطو خطواتها الأولى داخل المدينة، المكان هذا مخيف، موحش، يكاد يخلو من أثر الحياة، مع تجمّع الثّلج على الأرصفة المهلهلة والسيّارات، دون نسيان الأشجار العارية من أوراقها ذات الأغصان المتيبّسة التي مدّت أصابعها الرّفيعة لتأخذ شيئا منه، مع كلّ هاته المشاهد لم تجد أثرًا لإنسان، تمشي في الشّارع هذا وحدها ورفقاء دربها غربان تنعق وقطط تموء، رياح باردة تذرو أكياسًا سوداء على طول الشّارع، هذا الأخير شقّ طريقه بين مبانٍ زجاجيّة تنطلق من أسفل إلى أعلى، فأعلى، حتّى فقدت " عفاف" أثرها في القمّة، هي مهجورة، فلا أضواء ولا حركة في هذه المدينة، غلب عليها اللّون الرّماديّ، لون الأسرار المخفيّة، لون الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كانت خائفة متوتّرة، تمشي وتلتفت في كلّ اتّجاه وهي تكرّر دون توقّف:

" يجب أن أجده، يجب أن أجده، لكن أين؟ أين هو؟".

التهمها البرد وطفق اليأس يتسلّل إليها شيئا فشيئا، فهاهي تمشي وتأخذ الطّرق الفرعيّة وتبحث في كلّ مكان تعتقد أنّه سيكون فيه الشّاب، تعبت ولم تستطع المتابعة، فاحتمت من الثّلج المتساقط داخل عمارة، جلست في إحدى أدراجها وفكّرت.

بحثها العشوائيّ هذا لن يوصل إلى نتيجة، حتّى وإن بقيت عشر سنين متّبعة نفس الأسلوب فلن تجده، حاولت ربط الأسباب والأحداث فيما بينها، لماذا خطفا "عمادًا" بالذّات؟ فقط لأنّ الدّور أتى عليها فكان من الواجب استبعاده أم لسبب آخر؟ إن كان هؤلاء الثّلاثة بالفعل تابعين لمن سيكون

"مبارزًا" لهما في المرحلة الأخيرة، فمن اللاّزم أن يتركوا أدلّة توصل إليهم، أو إلى مقرّهم حتّى تتحقّق إرادة العالم هذا بأفعال الحاضرين فيه، أين هي هاته الدّلائل؟ وخصوصا، قول الشّعلة ذاك، كلامها الغامض عن "معرفتها بالشّاب"، كيف سيوصلها إليه؟ ماذا كانت تقصد بالذّات؟

منذ بداية التّحدي هذا لم تعرف عن الشّاب الشيء الكثير، بل ما عرفته عنه وما أدركته بشأنه ربّما كان مغلوطا غير صحيح، فهو رافض لكلّ المشاعر، غير أنّه يشعر ويُنكر، هو شجاع بالتّأكيد، غير أنّه متردّد أيضًا، يغلب عليه الشكّ والظّن، يتكبّر حينًا ويتواضع حينًا آخر، أنانيّ ومتعاطف في نفس الوقت، كيف لكلّ هذه المتناقضات أن تكون في إنسان واحد؟ وإن كانت فكيف ستساعدها فوضى المشاعر تلك في إيجاده؟

بعد تفكير عميق، وأخذ وقت في وزن الأمور، في تصفيتها ومعالجتها، اهتدت إلى فكرة لم تكن الحلّ لتساؤلاتها، لكنّها ربّما هدتها السّبيل الذي يوصلها إليه.

" إنّها مدينة خالية، تبدو من بعيد جميلة، متطوّرة، غير أنّها كالمقبرة من الدّاخل، هاته المدينة تلائم كثيرا من آثروا الوحدة والتّقوقع على أنفسهم، إنّها مخبؤهم، في كلّ عمارة من هاته العمارات، في كلّ مبنى وناطحة سحاب، يقطن الآلاف، بل مئات الآلاف، متأكّدة من ذلك، لكنّهم لا يتقاسمون الحياة، لا يريدون ذلك، لهذا هي باردة، باردة ببرودة سكّانها، إنّها المدينة التي نادته من بعيد دون أن يدري، فوجد نفسه فيها بحسب ما قال عن نفسه، أنّه لا يؤمن بالمشاعر والأحاسيس، هو هنا، لكن أين بالذّات؟

ما هو المكان الذي تخلو فيه المشاعر في مدينة كهذه؟

ما هو الرّكن الأكثر سوداويّة؟

ما هي البقعة التي تحتضن الفراغ والعدم؟

أجيبيني أيّتها المدينة الحقيرة، أجيبيني ودلّيني عليه ولا تتركيني حائرة معلّقة ...".

كانت تستحثّ نفسها وتطلب الجواب دون توقّف، لكن دون جدوى، قرّرت أن تجول مرّة أخرى في أطراف المدينة، علّها تجد من يساعدها بعد أن طرقت الأبواب واستغاثت فلم تجد صدى لصراخها الحزين، صالت وجالت، هائمة على وجهها مبلّلة بالدّموع الحارّة وماء الثّلج الذّائب، ترنّحت فلم تستطع المضيّ قدما من شدّة التّعب والأسى، إلى أن استوقفها هذا المبنى القديم الذي أخذ له مكانا بين ناطحتي سحاب زجاجيّتين.

ماذا يفعل هذا المبنى القديم المائل هنا؟

إنّه ... إنّه ميتم.

ميتم؟ هنا بالذّات؟ غريب.

فتحت عينيها وأملت أنّها قد اهتدت إلى ما كانت تبحث عنه...

الميتم، مكان يجمع أطفالا، لكنّهم إلى حنان الأم وحماية الأب محتاجون، فاقدون لها منذ الولادة أو بعدها دون معرفتهم من أين جاؤوا ولماذا هم هنا باقون، إنّه مكان ضاعت فيه الأحاسيس الحقيقيّة، فعوّضتها أخرى مصطنعة، دور تلعبه مربّيات ومشرفات لن يعوّضن أبدا دفئ العائلة، الكلّ يلعب دوره ويصمت، الأطفال يلعبون دور الأبناء المطيعين وهؤلاء المربّون

يلعبون دور الآباء الصّالحين الذين يعطون كلّ شيء لهؤلاء الأطفال المساكين، يخدعون أنفسهم ويصدّقون كذبة اختلقوها، يعيشون في عالم صنعوه لأنفسهم، صدّقوه عنوة حتّى لا يُجهز الحزن عليهم، يرضون جميعا بالموجود أفضل من لا شيء، هذا هو الفراغ، هذا هو اللاّشيء ...

فتحت ذاك الباب، فصادفها ذاك المنظر.

" يا إلهي، ماذا حصل هنا؟".

كلّ ما في داخل هذا الميتم أكلته نار جائعة، سلّم روحه منذ مدّة، لم تترك ألسنة اللّهب سوى بعض قوائم الكراسي والطّاولات المتفحّمة، أكوام الرّماد هنا وهناك شاهدة على هول الحريق الذي شبّ فأتى على كلّ شيء، الأرضيّة، الجدران والسّقف، في كلّ مكان قلّبت فيه بصرها كان سواد ورماد، رائحة أنفاس الخشب المحترق نفاّذة، غطّت أنفها وفمها حتّى لا تتأثّر.

فجأة توقّفت، جحظت عيناها وتصلّبت في مكانها، على عمود خشبيّ هناك كان أحدهم يحاول الإفلات، كان مشدودًا إليه ومربوطًا بإحكام، أسرعت لترى ما الخطب، وكان ...

" أنت هنا؟".

نعم كان "عماد" ملفوفًا بحبل غليظ ومشدودا إلى ذاك العمود الذي لم تصله النّيران، كيف بالميتم كلّه احترق إلاّ العمود هذا؟

إنّها " الإرادة"، "قدر هذا العالم"، نجحت الشّابة وكان من المنطقيّ أن تعثر عليه، فكيف بالشّاب يأخذه اللّهب دون إكمال المغامرة وهما اللّذان

وصلا إلى آخر مرحلة؟

كالصّنم بقيت تنظر فيه غير مصدّقة أنّها وجدته، هو حينما رآها اهتزّ وزادت حركته، كان فمه مغلقًا بشريط غليظ، أسرعت إليه جريًا وتركت مشاعرها تعبّر عن فرحتها دون تفكير، دون تحفّظ، عانقته وبقيت لحظات كذلك، لم ينتظر منها ما فعلته، صُدم وسكن، لم يتحرّك بعدها وبقي ينظر فيها عن كثب، ذرفت دموع الفرحة حارّة دون توقّف، قالت بصوت مرتعش:

" الحمد لله أنّي وجدتك، وأخيرا".

لم تنتبه لما فعلته حتّى رأت ذراعيها حوله، بسرعة نزعتهما وطفقت تفكّ قيده شيئا فشيئا حتّى تمكّنت من تحريره بصعوبة، نزع الشّريط اللاّصق من فمه، أخيرا وبعد عناء كبير وفراق ليس بالقريب التقيا مرّة أخرى، استحيت من ردّة فعلها فوجّهت بصرها للجهة المعاكسة، بقي ينظر فيها، لم يجد حينها الكلمات التي يعبّر بها عن امتنانه لها، الآن، وفي نفس اللّحظة أدرك يقينا أنّ الشّكر واجب، ومن الوقاحة أن لا تردّ بعضا من جميل الآخرين وهم الذين سعوْا إلى إخراجك من جحيم مصيبة ألمّت بك، هكذا قالها في نفسه، هدأ ثمّ لأوّل مرّة ابتسم صدقا وقال:

" تمكّنت وحدك من التفوّق، ونجحنا في اجتياز تلك العقبة، أنقذتني يا "عفاف"، مدين لك بالفعل".

كانت هاته الكلمات كفيلة بأن تردّ الحياة لنفسٍ منهكة تعبة، إنّها الدّواء الذي بحثت عنه لتضمّد جراح سفرها الطّويل، ووحدتها القاتلة.

بكت مرّة أخرى فرحًا بما قاله، ردّت عليه:

" الحمد لله على سلامتك، المهمّ أنّك بخير".

ثمّ أضافت معتذرة:

" آسفة على ما فعلت، كانت ردّة فعل آنية، بريئة، لم أقصد شيئا من خلالها".

ارتبك هو الثّاني واضطرب، غير أنّه استدرك بسرعة وردّ:

" لا ... لا عليك ".

" أكانا من احتجزاك هنا؟ صاحبيْ المنطاد؟".

سكت قليلا ثمّ:

" نعم هما، كبّلاني جيّدا واصطحباني معهما، تركا المنطاد خارج المدينة، ذاك "السّافل" حرق بابها ونشر الفزع والخوف بين سكّانها، فهرب من هرب، واختبأ من اختبأ".

سألته مقاطعة ومستغربة ممّا سمعت منه:

" كلّهم هربوا؟ وهما اثنان؟ كيف هذا؟".

" أهل هاته المدينة مسالمون، لا يؤذون من آذاهم ولا يملكون شيئا يدافعون به عن أنفسهم من الظّلمة المستبدّين، طول حياتهم عاشوا في وئام وسلام، إلى أن نسوا معنى الشّجاعة والإقدام، بل اعتبروهما همجيّة وعنفا، حتّى أتى هذان، وأريا أهلها معنى القهر، خصوصا ذاك الذي صرخ في شوارع هاته المدينة الهادئة مهدّدا:

" كلّكم هالكون لا محالة" ".

" يا لهوانهم، هم من مكّنوهما منهم، تركوا لهما فرصة استعبادهم".

" لم أجد ما أردّ به عليهما، كان "غليظ الطّباع" حاقدًا كارها للكلّ، أمّا صاحبه فشجّعه بحرارة، كان معجبا بما قام، بسرعة خلت الشّوارع والسّاحات، الأحياء والأزقّة، باتت مدينة أشباح حقيقيّة، وهما المتحكّمان فيها".

" والثّالث؟ أين كان؟".

" لم يظهر ولم أره".

" احتجزاك هنا، في هذا الميتم، أشعلا النّار وتركاك لتحترق أليس كذلك؟".

" قالا إن تمكّنت الفتاة من اجتياز اختبارها فلن تمسّك النّار، وإن فشلت فتقضي هنا ولن يسمع بك احد، ستكون آخر محطّة لك".

" ثمّ ذهبا؟".

" نعم ... ذهبا".

" هكذا بكلّ بساطة؟".

" قالا أنّهما سيكونا في انتظارنا".

" أين؟".

" في أعلى برج في المدينة".

" برفقة صديقهما الثّالث ... وكذلك "رئيسهما"، "قائدهما" إن أردنا القول؟".

" لا أدري ... لم يتكلّما في شأنه بتاتًا".

لم تردّ لحظتها، صمتت ثمّ قالت:

" إذا كان هذا حال تابعيه، فكيف سيكون هو؟".

لم يردّ عليها، انتابه الشّك لحظتها، توتُّر بدا على وجهه المتعب المرهق، أدركت "عفاف" أنّها قد زادت الطّين بلّة بكلامها، لم تزد على ما قالته، خرجا من الميتم الذي بالكاد استطاع البقاء صامدا، خرجا وعلى لسانها سؤال ودّت طرحه عليه، لكنّها أحجمت، لاحظ عليها ذلك، وكأنّ السّؤال ارتسم على وجهها بلغة لم يفهمها، فبادرها:

" ماذا؟".

" ماذا ماذا؟".

" ما الذي تريدين أن تعرفيه عنّي؟".

بدهشة ردّت:

" وما يدريك أنّي أريد معرفة شيء خاصّ بك؟".

" نظرتك تبوح بكلّ شيء وتفشي كلّ سرّ، لا تستطيعين كبح جماح مشاعرك وإخفائها، أنت كتاب مفتوح يسهُل تقليب صفحاته".

تشجّعت وطرحت السّؤال عليه:

" ميتم، لماذا بالذّات ميتم؟ وسط هذا العمران بقي ينتظرك لتُحتجز فيه، هناك سرّ، سرّ يربطك بهذا الميتم يا "عماد" ".

نظر فيها نظرة حزن واستياء، ثمّ تقدّم ومشى، هي تبعته من دون أن

تفهم سبب إعراضه عن الإجابة، صمت قليلا ثمّ قال:

" علينا أن نجد البرج هذا، سيكون من السّهل أن نجده فهو الأعلى في المدينة".

ردّت عليه بقوّة وحزم:

" تتفادى الإجابة عن السّؤال، وهذا دليل على صحّة شكّي، هناك أمر".

توقّف وصمت، أغلق عينيه وبعد لحظات ردّ:

" أنت ذكيّة يا "عفاف"، لا يمكنني مجاراة حسّك المرهف ودقّة ملاحظتك".

استغربت من ردّ، هو أضاف:

"ذاك الميتم، هو الذي عشت فيه أوّل أيّام حياتي، المكان الذي رمتني فيه أمّي التي ولدتني، هذا الميتم هو مجمع أحزاني ومقبرة آمالي حتّى قبل أن أدخل معترك الحياة، إنّه منفاي الأوّل، زنزانة انفراديّة لمسجون أُطلق عليه الحكم وهو بريء ...".

لم تصدّق ما سمعته، أدركت بعضا من الحقيقة التي كان يخفيها منذ أن التقيا في العالم الآخر، "عماد" طفل تخلّى عنه أقرب الأقربين، تركوه محروما من حقوقه كإنسان، بصريح العبارة رموه، تخلّصوا منه، لأنّه وببساطة لا يعني الشّيء الكثير.

هذا ما كان يحسّ به ... ولا زال.

مؤلم، بالفعل مؤلم، أكملا طريقهما تحت الثّلج المتساقط بكثافة، مرّة على مرّة تهبّ رياح تجمّد الأوصال، تذكّر النّاسي بمدى ضعفه وهوانه أمام

الطّبيعة، خصوصا إن قست وكانت عنيدة لا ترحم.

بثيابهما المهلهلة الممزّقة، بجسديهما المتعبان، بكلّ تلك الأفكار والأحاسيس التي جرّاها معهما نحو المحطّة الأخيرة، مع كلّ هذا أكملا، دفعا بنفسيهما نحو الأمام، إلى أن تراءى لهما البرج الموعود، "برج السّماء".

" إنّه أمامنا يا "عماد".

" أراه نعم".

" حان الوقت لننهيَ كلّ ما بدأنا به، الاختبار الأخير ينتظرنا".

" حضّري القنّينة، سنخرج منتصرين بإذن الله".

شجّع كلامه الفتاة، رغم نبرة الحزن التي غلبت عليه إلاّ أنّه مصمّم على المضيّ، لا بأس فلكلّ حادث حديث.

صعدا الأدراج العملاقة التي أوصلت لباب زجاجيّ عملاق، هذا البرج عالٍ لا ترى قمّته، زجاجه أسود لامع، يشبه الصّاروخ الثّابت.

" أمتأكّد من أنّه البرج المطلوب؟".

" لم نجد أعلى منه في المدينة".

"هناك أبراج أخرى تقاربه علوًّا".

" ما علينا سوى المحاولة".

فتح الشّاب الباب الزّجاجيّ، استقبله مباشرو مصعد، أعلى المصعد لافتة كُتب عليها باللّون الأحمر: " المواجهة الأخيرة، الأقرب إلى السّماء" وسهم يشير إلى باب المصعد.

" هذا كفيل بالإجابة عن سؤالك".

صمتت وتبعته، صعدا إلى الطّابق الأخير بحسب ما عنته الملاحظة المكتوبة، فُتح الباب فإذا ببستان أخضر جميل، فيه من كل ألوان الزّهور والورود، نباتات خضراء مشرقة، حتّى المياه الرّقراقة سالت على أطراف هاته الجنّة كشلاّلات صغيرة رائعة الجمال.

" ما هذا؟".

" والله لا أدري".

في تلك اللّحظة خرج رجلان من بين تلك النّباتات الطّويلة، إنّهما "الخاطفان".

فور رؤيتها استشاط "عماد" غضبًا، وتبعته "عفاف"، وقفا أمامها بكلّ ثقة، حانت لحظة الحقيقة.

" لازلتما هنا؟".

ردّ " المُعجب الأسمر" على "عماد":

" وأين نذهب يا صديقي؟".

قاطعتهما "عفاف":

" أين قائدكما؟ رئيسكما؟ أين الثّالث؟".

ضحك " المتنمّر" وردّ:

" القائد؟ لا يقودنا أحد نحن الثّلاثة، كلّنا واحد، وواحدنا ثلاثة، نحن اختباركما الأخير".

نظر "عماد" في "عفاف"، في أوّل الأمر كانا يعتقدان أنّ ثلاثتهم مجرّد أتباع، ثمّ بادرهما شكّ أنّ الثّالث الذي لم يظهر هو قائد المجموعة، والذي وجب عليهما التغلّب عليه، لكن أن يكونوا جميعا في منزلة واحد، هذا الذي لم ينتظراه.

" ألن يظهر هذا الذي تخفيانه وكأنّه السرّ الأعظم؟".

" تأكّد أنّه لن يظهر ما دمتما لم تتغلّبا علينا في هذه المواجهة، سيكون آخر حصن دفاع إن تمكّنتما منّا".

اقترب "عماد" من "عفاف" أكثر وهمس لها:

" أنت خذي " المتنمّر" وأنا سأتكفّل بـ "الأسمر" ".

رأت فيه بإعجاب ثمّ ردّت:

" وهو كذلك، لديّ الخبرة الكافية للتّعامل مع "الحبّ" ونقيضه".

" وأنا لديّ حساب مع هذا، سأردّ له الصّاع صاعين".

افترقا وأخذ كلّ واحد يتابع غريمه، كلّ في جهته، ودون إطالة بدات المواجهتان في نفس الوقت:

" أقدّم نفسي أوّلا، أنا "الإعجاب"، غريمك في هذا النّزال".

" ما يعني أنّه عليّ أن أدفعك للشّعور بعكس ما تمثّل لكي أفوز بالجولة".

" أمتعوّد أنت على كشف أوراقك قبل بداية أيّ مواجهة؟".

" كلاّ لست متعوّدا، لكن ولأنّي متأكّد من فوزي عليك أتكلّم بكلّ أريحيّة ".

نظر فيه "الأسمر" وقال:

" أتدري، زاد إعجابي بك، ثقتك بنفسك عالية، لا يبدو عليك الخوف ولا التوتّر، وهذا الأمر نادر في كثير من النّاس، قليل منكم فقط من استطاع الوصول إلى مستوى عالٍ يقارب مستواي في الكمال".

ضحك "عماد" وردّ:

" الآن ظهر وجهك الحقيقيّ، أيّها المتكبّر المختال".

ردّ عليه مبتسما:

" ماذا ظننت أيّضا الحشرة؟ أنّي معجب بكم أنتم البشر الضّعفاء؟ مُعجب بأفعالكم وأقوالكم؟ مُعجب بإنجازاتكم؟ لستم على شيء، وإنّما ذاك قناع أضعه أتملّق به أمثالكم لأكشف حقيقة كلّ إنسان، فأتمتّع وأتسلّى بأحلام وآمال الفاشلين، أقضيَ وقتي هكذا، في التحبّب والتقرّب لكم حتّى أغوص في أعماقكم لأعرفكم أكثر، فأوقع بكم بطريقة لا تخطر على بال، من حيث لا تعلمون، مساكين أنتم، بالفعل مساكين".

غضب "عماد" ممّا سمعه:

" ألست إنسانًا مثلنا؟".

" لست بنفس قيمتكم".

تحكّم "عماد" في نفسه حين سماع ردّ هذا المتكبّر.

" إن كنت مُعجبًا بآخر غيري، فإعجابي لمن هم مثلي في الرّفعة والكمال، في القوّة والغِنى، غير أنّكما مجرّد حثالة لا قيمة لها".

ما قاله كان مؤثّرًا في نفس الشّاب، فمقارنة بينه وبين هذا "الأسمر" يظهر الاختلاف جليًّا، هو بلباسه الكلاسيكيّ المرتّب، وأبّهته الطّاغية، في مقابل شاب بثياب رثّة يشبه المتسوّل.

" فعلا، حينما يطغى الإعجاب بالنّفس يصير جنونا".

" وما أحلاه من جنون".

في الوقت الذي بدأ فيه "عماد" معركته مع "الأسمر" كانت "عفاف" في خضمّ مواجهتها مع "البغيض"، هذا الذي دفعها من المنطاد، فرصة لها لردّ الاعتبار.

" ماذا ستفعلين الآن؟ تجبرينني على الاعتراف بإحساس يخالف طبيعتي وكياني؟ أنا "الكره" الذي يأتي على الأخضر واليابس، اعترفي بضعفك وهوانك، وانسحبي خير لك، فمعركتك معي خاسرة منذ البداية".

بقيت "عفاف" واقفة تنظر فيه بتمعّن.

" ماذا؟ أكلّ هذا خوف ورهبة؟".

لازالت مركزّة في عينيه.

" ما الذي دهاك؟".

توتّر "غليظ الطباع" ولم يفهم ماذا قصدته من تلك النّظرة التي أربكته، سكت لحظات تساءل فيها مع نفسه: "ماذا بها؟ لماذا لا تردّ؟"، فأتاه الجواب:

" والله أشفق عليك".

" ماذا؟".

" قلت لك، أشفق عليك، نهايتك أقرب ممّا كنت أعتقد".

ثار غضبا وصرخ في وجهها:

" تماديك زاد غضبي وكرهي لك، هكذا أنت تساعديني على كسب الجولة".

" حقًّا؟ إن سألك تجيبني؟".

" ماذا؟".

" قلت لك إن سألتك تجيبني؟".

" ما هو سؤالك؟".

" وستصدق في الإجابة؟".

" هذا العالم لا يعترف إلاّ بالصّدق، لا يمكن لأحد أن يكذب إلاّ وعوقب".

" جميل، قل لي الآن: أنت تكره كلّ إنسان؟ كلّ شيء؟".

" كلّ ما تتخيّلين، أكره كلّ كائن وموجود، أكره كلّ ما كان ويكون".

ضحكت "عفاف" وردّت سريعًا:

" تكره حتّى من أوجدك وأعطاك نعمة الحياة؟ أتكره الله؟ ومن كان سببا في وجودك؟ أمّك وأبوك؟ أتكرههما أيضا؟"

انعقد لسان المسكين ولم يجبها.

" لنقل أنّك تكره كلّ النّاس وأنت مهما قلت وفعلت منّا وإلينا، أتكره نفسك كونك إنسانًا؟ وإن كرهت نفسك كونك إنسانًا فماذا تكون الآن؟ ولماذا لازلت على قيد الحياة إن كنت كارها لنفسك؟ فالتمُت، أليس ما قلته

منطقيًّا؟ ".

ازداد غضبه وردّ عليها بعبرات غائبة المعنى:

" لكن ... ما علاقة هذا بذاك ... الكره والحبّ ... أنا أكره لأجل الكره ولا دخل لأيّ كان فيما أقوله أو أفعله".

" لم يعد الأمر خاصّا بك، الكره كما كلّ شعور ليس مطلقا، ولا يمكن أن يكون مطلقا يشمل الكلّ ودائمًا لا نهاية له، تدافع على أمر أنت تناقضه دون علمك، فقط لم تفشه وتركته سرًّا مخفيًّا عن علم أو جهل".

" ماذا تقصدين؟".

" أجبني وعدالة هذا العالم شاهدة عمّا تقول: أتكره الله؟ أتكره نفسك؟ أتكره الحياة؟ أجب بإحساسك، بقناعاتك، بما أنت متأكّد منه وليس بما تظنّه ملائمًا لك فتتبنّاه كواجهة للظّهور والتميّز الكاذب".

جحظت عيناه وانتابه خوف غريب، خوف من الاعتراف بالحقيقة، لكن فات الأوان، أقامت عليه الحجّة وعليه أن يجيب، لا مفرّ، لم تفارق عيناها الزّرقاوين عينيه المفتوحتين، ولكي تدفعه للإجابة رمقته بنظرة كلّها استفزاز ومكر ثمّ قالت:

" رجل بمثل هاته القوّة والقامة، يدّعي ما لا يؤمن به، يمثّل دورًا تخيّله، أقنع نفسه أنّه قادر على تقمّصه، غير أنّه ليس أهلا له".

" ليس دورا، بل هي طبيعتي".

" إذن أجب عن أسئلتي، كن شجاعًا وأجب".

أطال ثمّ أجاب بصوت منخفض متردّدا غير متأكّد:

" أخاف الله، وأقدّر نفسي وهاته الحياة التي أعيشها".

أراد التّلاعب بالألفاظ والخروج من المواجهة سالمًا، لكنّ الفتاة طوّقته أكثر وألزمته بالإجابة التي ستضمن لها الفوز:

" أجب بأحد الاختياريْن: أتحبّ الله أم تكرهه؟ أتحبّ نفسك أم تكرهها؟ أتحبّ الحياة التي تعيشها أم لا؟".

لم يجد بدّا من الاعتراف الآن، كلّ محاولات اللّف والدّوران لم تنفعه مع هاته الشّقيّة:

" لا يمكنني إلاّ أن أحبّ الله الذي أوجدني وأغدق نعمه عليّ، أحبّ نفسي لأنّها ذاتي التي بها أعيش وأحيا، فكيف أكرهها وهي أنا؟ أحبّ الحياة التي أعيشها، إن كنت كارها لها لما بقيت، لاخترت الموت عليها، هذه هي الحقيقة".

ابتسمت وقالت:

" لا وجود للإطلاق والدّيمومة في أيّ شعور، الكره غير مطلق وغير دائم أيضا، وإلاّ لكانت عواقبه وخيمة على كلّ من اجتاحه، فينا تتغيّر المشاعر وتتبادل أمكنتها بغيرها، وسواء أغلب فينا شعور عن الآخر، نبقى نحن البشر مزيجا من كلٍّ مركّب، لسنا خلاصة شعور واحد ثابت".

نظر فيها ... ثمّ ابتسم، وكم كانت تلك الابتسامة جميلة على وجهه، جعلته وسيما بعدما كان عابسًا قبيح الوجه منفّرًا، ختم كلامه قائلا:

" صدقتِ، بالفعل صدقتِ".

بدأ بالتّلاشي، شيئا فشيئا تاركًا ابتسامة عريضة دلّت على كلّ ما هو جميل في نفس الإنسان، رغم كلّ ما يمكن القول على البشر، أنّهم همجيّون،

متكبّرون، أنانيّون، مخادعون ... إلاّ أنّهم أيضا مسالمون، متواضعون، محبُّون للغير، صادقون ... فليست فيهم ميزة الشرّ ثابتة، بل يتقلّبون في أفكارهم ومشاعرهم بين هذا وذاك، وتلك سنّة الحياة.

فازت بالجولة بسرعة، التفتت نحو "عماد" فرأته واقفا يجادل غريمه، لازال يصارع مصيره، استدار فرآها واقفة وحدها، تأكّد من فوزها فابتسم، بادلته الابتسامة وأشارت بالسبّابة إليه أنْ: " أنهيتُ المهمّة، إليك الخطّ".

استبشر خيرا وعاد ...

عاد لمواجهته ...

" ماذا؟ أشغلتك فتاتك عنّي؟".

" تغلّبت على صاحبك، لقد تلاشى واندثر".

" لا يعنيني أمر شيئا، كان ضعيفا، لا أعترف بالضّعفاء، فقط من كان عالي المقام استحقّ الانتباه".

" بالفعل تمثّل الغرور والتكبّر بأسمى معانيهما، لن يكون من السّهل التغلّب عليك يا هذا".

" لن تتغلّب عليّ بتاتا، كُن متأكّدا من ذلك، أنصحك بالانسحاب والاستسلام".

" لن أنسحب وقد شارفنا على كسب الجولة وافتكاك الفوز".

" يعني؟".

" يعني مهما كنت متعجرفا تبقى ضعيفا محتاجًا للتّواضع".

لم يفهم مقصود "عماد"، غير أنّ نبرة صوته كانت تؤكّد ما قاله.

" ماذا تقصد؟".

" أقصد أنّ كذبك لن ينجيك منّي".

قالها وابتسامة عريضة على وجهه، ابتسامة مستفزّة لم يستطع "الأسمر" أن يصبر على السّكوت بعدها:

" أفصح".

" إن كان إعجابك بالغير فحسب فقد ظلمت نفسك، حتّى إن كان مصدر هذا الإعجاب التّشابه بينك وبين الذين أعجبت بهم في صفاتهم وأخلاقهم، لأنّك تُغلّب الجماعة على نفسك، فلا تعطيها حقّها من الاهتمام، ولا تعمل على التميّز الذي يجعلك فردًا فريدا، ستغيب وتذوب وسطها لأنّ إعجابك انحصر فيها واهتمامك سُلّط عليها، فتُصبح في أدنى مرتبة بينما هم وبفضل ما سبق من إيثار الكلّ على الفرد، يسبقونك إلى الرّفعة ويحوزون أعلى مكانة، جميعا مع بعض، ويتركونك وحيدا في الأخير دون شيء".

" أتريد زعزعة اعتقادي بكلامك هذا؟".

قالها والابتسامة غائبة عن وجهه.

" إنّها الحقيقة فهل تنكر ذلك؟ هل تنكر أنانيّة الإنسان وحبّه لنفسه؟".

" لا أنكرها بل أشجّعها، فالعُجب يغذّي الأنا ليجعلني الأفضل على الإطلاق، فالنقل أنّك على حقّ فيما يخصّ الإعجاب بالغير، لكن الأصل في النّفس والترفّع بها عن الآخرين واجب، فكيف تقنعني بالتّواضع وهذا الأخير سبب جعلي أسفل السّافلين؟ فكيف أقبل بهذا الهوان؟".

ضحك "عماد" ثم صمت، بقي كذلك لحظات، بدأ القلق يتسلّل إلى نفس "الأسمر"، راوده الشكّ، سأل نفسه: "لماذا يضحك؟ أهو متأكّد ممّا يفعل؟ أحقًّا يملك ما يدافع به عن نفسه؟".

نظر الشّاب في غريمه نظرة تحدّ ثمّ قال:

" إن كنت فعلا في القمّة، وصلت إلى الكمال الذي ترفّعت به عن الإنسانيّة، فلم لازلت تشبهنا نحن "العبيد"؟ أم أنّك لم تستطع التخلّص من صورتك البشريّة لتعوّضها بأخرى أسمى وأرفع؟".

سكت ولم يردّ.

" عليك أن تتغيّر بحسب ما تعتقد، وإلاّ فما قلته مجرّد هراء وكذب، كلّ ما فيك يجب أن يلامس الكمال، شكلا ومضمونا، حتّى تكون الأفضل من كلّ النّواحي عليك دفع هذا الثّمن، ثمن الرّغبة في كونك الرّقم واحد، وهنا ستقع في مشكلة أكبر: ما هو الكمال؟ ما الذي يجعلك كامل الصّورة؟ كيف تقنع النّاس جميعا ليجتمعوا على رأي واحد يوافق صورة واحدة تمثّل الجمال والكمال وكلّ يراهما في صورة مختلفة؟ إن اتّفقوا على أكثريّة الأخلاق والأحاسيس فلن يجتمعوا على اختلاف الصّور وأشكالها، لن تتمكّن من الوصول إلى الكمال الذي تريده وتفرضه كعنوان أسمى على الكلّ".

كالصّاعقة نزلت كلماته على "الأسمر" الذي فقد الابتسامة والضّحكة، المصيبة أنّه لم يجد بما يردّ عليه، الحقيقة أنّه بكلامه وضعه في زاوية ضيّقة منعه من الخروج منها.

" سأقنع الجميع بكمالي لأنّهم سيُعجبون بي ويتّبعوني فيما أقول وأفعل،

كلّ ما أقرّه يصير قانونا يطبّق عن طيب نفس، سيصبح الإعجاب دينا يؤمن به النّاس".

" مخطئ، يؤمن به فقط من هم ضعاف العقول مسلوبي الإرادة، لأنّهم يرون الكمال فيما تقرّه أنت بالقوّة عليهم ليتظاهروا فيما بعد بأنّهم معك خوفا من بطشك وحسب، لن تستطيع إقناع النّاس بإجبارهم على ما تراه أنت صحيحا وكاملا، إن لم يكن ذلك من الدّاخل، من قلب مستسلم عن رضا وعقل مسلّم عن حقيقة ومنطق فلن يكون لك ما أردت مهما فعلت".

غضب غضبًا ثارت معه ثائرته، لم يرد تقبّل ما قاله.

" حتّى وإن غضبت، فلن تغيّر من الحقيقة شيئا، وإن وصلت بعد كلّ الأكاذيب وأساليب الخداع التي ربّما ستمارسها على الآخرين وصرت في القمّة، فلن تستطيع أن تصير أكثر ممّا أوصلتك إليه ألاعيبك، سيأتي آخرون في زمن ومكان لاحقين ليأخذوا منك ملكك ويستولوا على عرشك، فهذه سنّة الحياة، لن تبقى في القمّة أبد الدّهر".

قاوم " الأسمر" رغبته الملحّة في القضاء على "عماد"، لكنّه أحجم بصعوبة، أراد أن يتحكّم في الأمور ويعيد النّصاب لصالحه، فكانت حيلته الأخيرة أن طرح سؤالا مُعجزا يربح به الوقت حتّى يجد المنفذ من خلال أخطاء غريمه الذي أبان على حنكة وذكاء كبيرين.

" إذا كان ما قلته صحيحا، فكيف أصل إلى القمّة وأنت تدعوني إلى خلاف ذلك؟ كيف أقدّر نفسي وأتمتّع بالفوز إن لم أتفوّق على الآخرين؟ كيف بالتّواضع يوصلني إلى هدفي وأنا الحالم الطّامع في المزيد".

ظنّ سؤاله صعبًا سيبقى الشّاب في حلّه ساعات، غير أنّ الردّ كان سريعًا وحاسمًا:

" أوّلا إذا كنت تودّ كسب ودّ النّاس فلا أفضل من التّواضع، فهم ينفرون من المتكبّر المختال المُعجب بنفسه، يجدونه مُعتدّا يرى نفسه أفضل من الجميع فينفضّوا عنه، هذا إن كنت تريد كسب إعجاب النّاس، أمّا بالنّسبة لحاجة النّفس لأن تُعجِب الآخرين وتمتاز، فكلّما تكبّرت بقيت في نفس المستوى، وربّما يكون عاليًا إن تمكّنت من الوصول إليه، لكنّك لن تتجاوزه، فالكِبر يمنعك من الاعتراف بأنّ هناك من هو أفضل منك لتتفوّق عليه، ستُنكر أنّ هناك ما هو أعلى من المستوى الذي أنت فيه، تخدع نفسك وتريد إقناعها بعكس الحقيقة الثّابتة والمنطق القائم: سيكون هناك آخرون يجتهدون فيجرّبوا حظّهم علّهم يتجاوزونك، وسيفعلون، ففوق كلّ ذي علم عليم، الحلّ؟ كيف تطوّر من نفسك وتجعلها أفضل وأكثر تميّزا دون استخدام الحيل، بكلّ بساطة، عليك أن تتواضع أيضا، لا مفرّ من ذلك".

" كيف؟ أتريدني أن أصدّقك دون إقناعي بما تقول؟".

" متى كان التّواضع رفيقك استمرّت فيك الإرادة لتحقيق المزيد، لأنّك تؤمن إيمانا عميقا بأنّك لم تصل بعد إلى القمّة، ولن تصلها، وهذا يدفعك للمزيد من الاجتهاد، حتّى إذا أتى هذا الاجتهاد بالثّمار وحقّقت الهدف الأوّل رسمت هدفًا آخر لتصل إليه لأنّ النّفس توّاقة للمزيد من النّجاحات، لن تتوقّف ولو اقتربت من الكمال، ستحاول لتحقّق أهدافًا أسمى، وهاته الدّورة اللاّنهائيّة هي التي تدفعك إلى الأمام وترفع من شأنك بين أقرانك كلّما اجتهدت، الكِبر والعُجب يوقفانك، يوهمانك بأنّك وصلت إلى أعلى مستوى

فلا داعٍ للمزيد، وفي الحقيقة سيكون دائما هناك المزيد، التّواضع يحجب عن ناظريك القمّة لتصلها، أمّا العُجب والكبر فيُريانك إيّاها لتتوقّف وتتأمّلها دون أن تطلب المزيد".

كلامه تغلغل في نفس "الأسمر" فكسر عنجهيّته، ما قاله توّا أجاب عن أسئلته وأسئلة كلّ من أراد التفوّق فيُرضي النّفس والنّاس بما هو خير وصلاح.

" إن أردت التفوّق، التميّز، إن أحببت أن يحبّك النّاس، إن أردت إرضاء نفسك، فتواضع واعمل ولا تتوقّف، العُجب والكبر عنوانا الفشل يا صديقي".

سكت ولم يجبه، سكت طويلا ولم يفكّر في غير ما قاله هذا الشّاب رثّ الثّياب سيّئ الهيئة، هذا الذي وضعه وجها لوجه مع الحقيقة.

" صدقت ... بالفعل صدقت".

" قُلها إذن".

نظر "الأسمر" في "عماد" وقال:

" إن طمعت في العلا ... فعليّ بالتّواضع".

هنا وفي نفس اللّحظة بدأ بالتّلاشي، أدرك "عماد" أنّه فاز بالجولة، فتنفّس الصّعداء، اختفى وعلى وجهه ابتسامة مختلفة، إنّها ابتسامة الإنسان الرّاضي على نفسه، ابتسامة المودّع الذي لم يهمّه شيء سوى أنّه اقتنع وهو راحل بالحقّ المخالف لما حرص أن يبقى وهو كذب .

تلاشى وذهب، سكون يدعو للرّاحة والاطمئنان، اقتربت منه "عفاف" محيّية ومهنّئة فوزه الصّعب، هو ابتسم وردّ:

" بقي واحد، علينا إيجاده".

" الخوف يتملّكه، لا بدّ وأنّه مخفيّ في هذا البستان، علينا البحث عليه وسط هاته الحشائش والنّباتات، لا مكان آخر يكون فيه".

" صدقتِ، فالنبدأ".

دخلا ذاك البستان فوجداه دغلا من الأدغال التي حضنت أنواعا من النّباتات والحيوانات لا حصر لها، الجداول تجري بين الأقدام والطّين يلتهم الخطوات سريعة كانت أم بطيئة، لا تسمع سوى صوت خرير المياه وحديث الطّيور فيما بينها، نسمات لطيفة تحمل معها رائحة التّراب والأوراق تحيي في النّفس روحا جديدة، سبق "عماد" ولحقت به "عفاف"، كان يمشي بحذر ويريها أين تضع خطواتها الموالية، ساعدها على اجتياز الممرّات الصّعبة وتفادي الخطيرة منها، وفي لحظة قال "عماد":

" إنّها آخر مواجهة، بعدها سينتهي هذا العذاب".

لم تردّ عليه حينها، استغرب فسألها:

" ما بك؟".

" في الأوّل كان عذابًا صحيح، لكن ألم تحسّ بشيء من الألفة؟ من المتعة والإثارة؟ أليست مغامرة تستحقّ العناء؟".

صمت ثمّ ردّ:

" تريدينها أن تستمرّ أليس كذلك؟ نهاية كلّ هاته الأحداث تعني نهاية مغامرة بالنّسبة لك؟".

" لن تجد مثل ما مررنا عليه في الحياة الواقعيّة، كلّ هاته التحدّيات،

كلّ الجهد الذي بذلناه، تعرّفنا على بعضنا، إدراكي التّام أنّ الشّكل لا يحدّد مكانة الإنسان، وإنّما هو بأخلاقه وقدراته الذّهنيّة والفكريّة، وكذلك بأحاسيسه ومشاعره".

" إن قصدتني فسبق وأن أكّدت لك أنّني أرفض التّصديق بوجود شعور بمكن ...".

قاطعته ضاحكة:

" لا تكمل أرجوك، فالحقيقة أكبر من أن تنطقها محاولا طمس ما هو ظاهر، أنت كما أنا، وكما كلّ إنسان، تشعر وتتفاعل، فقط تريد جاهدا إخفاء ما قدّر الله أن يكون ظاهرا في كلّ واحد فينا، روحك تخدعك، نفسك، تعابير وجهك، جسدك، لا تستمرّ في عنادك فذلك يجعلك بالفعل سخيفا".

لم يردّ عليها، وضعته في موقف حرج، وأحيت فيه ذاك الإحساس بعدم الرّاحة لما يفعل، تمثيله لدور الحجر الأصمّ فاشل.

" المهمّ، علينا أن نواصل حتى نجد غريمنا الأخير".

" ها هو أمامك".

خرجا من تلك الغابة الكثيفة، أرض عشبيّة على مدّ البصر، أمامها شخص يبدو قصير القامة بدرع معدنيّ على كرسيّ كبير جالس بانتظارهما، حوله أربعة أعمدة كبيرة شدّت أسلاكا معدنيّة شائكة، منعت دخول كلّ متطفّل.

" أترين ما أرى؟".

" أهذا هو؟".

" على ما أظنّ نعم".

اقتربا منه فصرخ من تحت خوذته:

" لا تقتربا أكثر، اللّعنة، ماذا تريدان؟".

أجابته "عفاف":

" لا بدّ وأنّك تمثّل "الخوف"، وأنت عقبتنا الأخيرة".

" أتيتما لتتخلّصا منّي، تريدان الخروج من هذا العالم بالتّضحية بي أليس كذلك؟".

" كان مقدّرا لنا أن نلتقي إن تمكّنا من اجتياز المراحل السّابقة، هذا الاحتمال كان واردا، كان عليك الاستعداد لمواجهتنا".

" أنا على أهبة الاستعداد، لن أتحرّك من مكاني هذا ولن أجيب عن أيّ سؤال، يكفيني "الخوف" الذي تملّكني من كلّ متحرّك وساكن، لتأتيا إلى هنا وتزعجاني".

" ليس بيدك خيار، عليك أن تواجهنا نحن الاثنان ومرّة واحدة".

نظرت في "عماد" فوجدته مركّزا على هذا "المتخفّي" في درعه، ساكتا ساكنا على غير عادته، وكأنّ به أمرا.

" ما الذي يحدث يا "عماد"؟".

" لا شيء، فقط ...".

" فقط ماذا؟".

" هذا ... هذا الذي نواجهه، صوته ...".

" ما به صوته؟".

" بدا مألوفا، أشعر وكأنّي التقيته من قبل".

" أهو من معارفك في العالم الآخر؟".

" لا، لا أظنّ، لكن، صوته مألوف، غير أنّي لم أعرفه".

" ركّز فيما أتينا لتحقيقه، ليس وقت الشكّ والظنّ".

" معك حقّ".

قاطعهما بصراخه:

" عودا من حيث جئتما، فلست مجيبًا عن أيّ سؤال".

" واحد فقط ثمّ نعود".

" ماذا؟".

" قصدت سؤالا واحدا، إن أجبت عنه سنعود من حيث أتينا".

فكرّ "المدرّع" قليلا ثمّ ردّ:

" أسرعا بالسّؤال".

لم يعجبها ما سمعته من "عماد" فاغتاظت:

" لماذا اقترحت عليه ذلك؟ كيف سنتمكّن منه بمجرّد سؤال واحد يجيب عنه بسرعة وانتهى؟".

" لا تقلقي، تابعي فقط".

" فقط؟".

" ثمّ عليك الدّور".

" كيف؟".

" قلت تابعي وحسب".

ابتسم وأضاف:

" سؤالي هو ماذا يمثّل بالنّسبة لك هذا الخوف؟ كيف سيحميك منّا؟ بل وكيف ستتغلّب علينا وأنت خائف؟".

" هذه ثلاثة أسئلة وليس واحد".

" أهذا كثير عليك؟ وإن يكن؟ ألن تجيب؟".

" بلى سأفعل، لكن لا تنسيا، ستوفيان بوعدكما لي، ستعودان من حيث أتيتما وتتركاني وشأني".

" حسنا حسنا، أجب فقط".

استرسل في الكلام أخيرا وانطلق شارحا:

" هذا العالم لا يعرف الرّحمة، يحكمه قانون الغاب، القويّ منّا يأكل الضّعيف، الحروب دليل لا شكّ فيه على طمع بعض البشر وأنانيتهم، إن لم تكن مع الأقوياء القساة، فأنت مع الضّعفاء دون شكّ، ستكون فريسة سهلة لمن يريد استغلالك، أنا طفل صغير لا حيلة لي ولا قوّة أواجه بها هذا الظّلم والاستبداد، كيف أعيش إذن وكيف أستمرّ؟ أهرب؟ إلى أين؟ كلّ زاوية أركن إليها هي مكشوفة للعيان، أبقى عرضة للاستغلال بالضّرورة، سواء تغيّر الزّمن أو اختلف المكان، ستجد من يريدك لصالحه الخاصّ، الملجأ الوحيد هو "الخوف"، الخوف ضمن لي الحياة، أبعدني عن الكلّ، دفعني إلى تعلّم حيل أتخفّى بها عن الأعين فلا يرونني، جعلني حذرًا فطنا لا أثق بأحد، فتصالحت

مع نفسي ولم أتّكل على غيري، لم ولن أطلب العون من مخلوق، الخوف جعلني كاملا في نفسي معتمدا عليها وحسب، في نفس الوقت وفّر لي الحماية التي أحتاجها من وحوش هاته الحياة، كان ولا زال المنفذ الوحيد الذي وقاني شرّ المصائب".

أكمل كلامه فسكت، بقي "عماد" واقفا دون حراك، ظنّ "المدرّع" أنّه قد حسم الأمر وفاز بالمواجهة، إلاّ أنّ الشّاب ضحك ثم استدار، وجّه كلامه لـ "عفاف":

" لنعد من حيث أتينا، هذا الذي حسبناه الأقوى في الحقيقة هو الأضعف، استعمل "الخوف" للهروب من واقعه، لتجنّب المشاكل ورمي المسؤوليّة على آخرين كما فعل كثيرون قبله، لا يستحقّ منّا حتّى البقاء، ليس المنافس لذي تقنا لمواجهته للأسف".

نظر فيها وغمز دون أن يراه، فهمت الشّابة المقصود، يريد استثارته واستفزازه وقد نجح، فقد نهض من كرسيّه الرّخاميّ فأثار ضجّة بسبب درعه الذّي لفّه تماما ولم يترك سوى عينيه تبحثان عن خيالهما من خلال تلك الخوذة.

" مهلا انتظر، إلى أين ذاهب؟".

" لا تستحقّ المواجهة، لن أضيّع وقتي في الحديث معك، أفضّل أن أفنى في هذا العالم على أن أسمع ترّهات كالتي تلفّظت بها، سماعك تقولها بذاته عذاب".

" ماذا؟ أتستسلم بسهولة؟ وهاته؟ أتجرّها معك إلى الفناء هكذا؟".

ردّت عليه مبتسمة:

" راضية بذلك لا تقلق، فأنا أيضا حسّاسة ولا أحتمل الحمق والغباء، أفضّل الموت وأنا مقتنعة".

استشاط غيظا من كلامهما، صرخ قائلا:

" إن لم يحمنا الخوف من كلّ المخاطر التي نخشاها، فما دوره إذن؟ لماذا هو موجود كشعور؟ ما الفائدة المرجوّة منه؟".

"بدأت تطرح الأسئلة الهادفة، اعلم يا صغيري أنّ "الخوف" الذي تتكلّم عنه ما هو إلاّ الوجه السلبيّ منه، هذا الجزء الذي يبقيك في الظلّ حتى تنتهي، حتّى الموت يعني، لكنّ الخوف هو غير ما قلته يا صديقي، الخوف شعور يدفعك للإبداع، للتطوّر، شعور يرفع درجتنا من الحضيض إلى العلا".

لم يفهم قصده، اختلطت عليه الأمور.

" الخوف ممّا سيأتي مستقبلا، الخوف من المجهول دفع الإنسان للابتكار، إلى كسر أغلال الجهل والسّعي دومًا إلى التحرّر، فالخوف ممّا سيأتي ملأ جعبة الحاضر بأفكار من عقل ولّد العجب فابتكر، الخوف من المرض مثلا، دفعنا إلى البحث عن طرق للمداواة، وقبله في البحث والاكتشاف عن العلّة ماذا تكون؟ لماذا كانت؟ وكيف -بعد كشف أسرارها التي خفيت عنّا من قبل- نقضي عليها فلن يبقى لها أثر بعدما أهلكت الكثير وأضرّت البقيّة، الخوف فتح أبواب المعرفة على التّطبيب حديثة للنّيل من علل أخرى كثيرة، الخوف من الكوارث الطّبيعيّة دفعنا لأن نخترع ما نتحصّن به، كما المخابئ الأرضيّة بالنّسبة للعواصف والأعاصير، والبنايات المضادّة للهزّات الأرضيّة".

زادت "عفاف" على ما قاله:

" الخوف من الفشل يبقينا متأهّبين وحذرين، دائمًا جاهزين لاكتساب المعرفة التي تعطينا الحلول لمشاكل اليوم والغد، الخوف من تكرّر أخطاء الماضي يجعلنا نتفادى تلك الأساليب التي أوصلتنا إلى مثل تلك النّتائج المُحبِطة، لنضطلع بأخرى أفيد وأكثر فعاليّة لتحقيق النّجاح".

أضاف هو:

" الخوف من الحرب ومخلّفاتها من جوع ومرض وفقر دفع أطراف النّزاع للجلوس إلى طاولة الحوار للخروج بحلول سلميّة تحفظ للنّفس كرامتها، وتبقي على حياة الملايين من البشر الأبرياء وهذا هو الأهمّ، الخوف علّمنا قيمة الحياة".

أردفت:

" بل الخوف من الموت هو من جعلنا نقدّر قيمة الحياة ومدى أهميّتها بالنّسبة لكيّ حيّ".

أكمل:

" الخوف من الله يدفعك إلى حبّه، يمنعنا ممّا حرّم، الخوف من مخالفة أوامره يحمينا من الوقوع في الموبقات والتمرّغ في الرّذائل، وبذلك يكون هذا الخوف بذاته جُنّة".

أخذت الكلمة:

" الخوف ليس هروبًا وإنكارا، وإنّما هو إحساس فعليّ بالواقع كما هو، انغماس فيه وممارسة له، الخوف يجعلنا نحيا بأحاسيسنا وحواسنا، الخوف

يحقّق فينا إنسانيّتنا ويعيدها لنا إن غابت فينا، يذكّرنا بضعفنا لنقوى ونصير أفضل، لا ليطبع على أرواحنا وشم الضّعف والهوان، الخوف دافع، يد تُمدّ لتخرجنا من اللّحظة إلى ما بعدها، ربّما بأوجاع وآلام، لكن بكلّ استحقاق وكما يجب أن يكون كلّ فرد صالح يفيد نفسه وغيره".

أنصت "المدرّع" لكلامها ولم يجب، فترة صمت طويل لم فهما ما معناه.

" أأنت معنا؟ أسمعت لما قلناه؟".

" ردذ أخيرا:

" نعم سمعت ... وفهمت".

نظرت "عفاف" في "عماد" وابتسمت، ربّما اقتنع، هناك احتمال نعم، رفع يده مشيرا إلى الحاجز الشّائك فاشتعل فجأةً وسقط رمادا، اندهشا ممّا رأياه فعادا إلى الخلف، بدأ بنزع درعه، الأطراف، الصّدريّة وأخيرا الخوذة.

و كانت المفاجأة، صدمة كبيرة، فتحت "عماد" عينيه من الدّهشة وخانته الكلمات في تلك فلم يستطع حتّى النّطق، لاحظت الفتاة شحوب وجهه وارتعاشه غير الطّبيعي حينما رأى الطّفل الأسمر هذا بشعره المجعّد وبلباسه البسيط، مجرّد قميص وتبّان، يا ترى هل عرفه؟ تأكّد الآن من هويّته؟

" من يكون؟ أتعرّفت عليه الآن؟".

" نعم".

" حقّا؟".

" إنّه ... أنا".

لم تفهم أوّل الأمر، فأعادت سؤالها:

" ماذا قلت؟ هو أنت؟ كيف؟".

" إنّه أنا حينما كنت صغيرا، في الثّالثة عشر أو الرّابعة عشر، نبرة الصّوت تلك وطريقة الكلام جعلتني أشكّ في الأمر، لكن من غير المعقول أن أواجه نفسي، لم تساورني هاته الفكرة حتّى".

" لكنّك تعلم أنّ هذا العالم كلّ شيء فيه ممكن".

" أعلم نعم، لكن إلى درجة أن أواجه نفسي؟ لم أنتظرها".

تدخّل " عماد الصّغير" وقاطعهما:

" ما قلتماه صحيح، للخوف وجه آخر غير الذي نعرفه، من المؤسف أنّنا نأخذه فقط من جانبه السلبيّ، ونعيشه طول حياتنا دون مقاومة أو محاولة تغيير، حجزت نفسي وحميتها لكن دون أن أحقّق شيئا بالمقابل، لم أجازف لكنّي لم أكسب، لم أتطوّر، لم أتحسّن، وبقيت كما كنت، ولولاكما لبقيت أكثر".

" الخوف بمعناه السلبيّ هو كابوسنا جميعا، ليس عليك ان تلوم نفسك وقد بدأت لتوّك خوض غمار الحياة القاسية".

قالها "عماد" وعلى وجهه ملامح العطف على نفسه، أشفق على هذا الصّغير الذي عاش معتقدا أنّ والديه يغمرانه حبًّا واهتماما، عاش كذبة كبيرة، لكنّه سأل نفسه لحظتها: ماذا لو اكتشف الحقيقة حينها بكلّ تفاصيلها التي عايشها وهو شابّ؟ ماذا لو لم يستطع مقاومة الألم والحزن وهو صغير؟ لن ستطيع ذلك بكلّ تأكيد، كان سيضيع أكثر فيصيبه مكروه

أكبر، لا رحمة للبشريّة باليتيم الضّائع وهاته حقيقة معيشة.

وهو شاب هرب وبات خارجا، رفض العودة، فكيف وهو صغير لا يدرك عاقبة الأمور يتصرّف بدافع الشّعور والصّدمة الآنية مع قلّة الحيلة وغياب الحكمة؟

ردّ عليه "عماد الصّغير":

" الشّجاعة تُبنى منذ الولادة، والإرادة على التّحقيق تكبر مع كلّ نفس، كلّ واحد فينا شجاع بحسب ما يستطيعه، ألوم نفسي لأنّي انتظرت أن يحيطني الجميع برعايتهم وحمايتهم، حسبت الدّنيا تدور حولي وأنا مركز الكون كما يُقال، غير أنّ الحقيقة هي عكس ما اعتقدته تماما، يجب أن أكون أنا الكلّ الذي يدور حول الجميع، إذا أردت اهتمام ورعاية الآخرين فيجب أن أقوم بنفس الدّور الذي ينتظره منّي بنو جلدتي، أن أتعاون، أن أعطي وأقدّم أفضل ما عندي في سبيل أن أعيش في هناء واستقرار، ردّ الجميل سيكون جزائي، سأعيش بين أقراني دون خوف، لأنّني كسبت ثقتهم وكسبوا ثقتي هم كذلك، كان الحقّ معكما، أصبتما بالفعل".

ابتسم "الصّغير" ولوّح بيده مفارقًا، إنّها لحظة الوداع الأخيرة فقد انهزم أمام نفسه، وأمام فتاة لم تستطع حبس نفسها عن البكاء، نظر "عماد" في نفسه وقال وفي صوته رعشة:

" لا تخف، فقد صرتُ شابًّا الآن، سأعمل على تصحيح أخطائي لأنّي بتّ مسؤولا، لن يكون الخوف الذي يعجزني على الاستمرار رفيق دربي، بل سيكون الخوف من عدم تحقيق مبتغاي دافعي لتحقيق أحلامي في الحياة".

لوّح له بدوره صامتا، دمعة حارّة على وجنته نازلة، كشفت هاته الدّمعة كلّ شيء، هو يشعر ويتفاعل، يفرح ويحزن، إنّها الحقيقة وكفى.

تلاشى الصّغير سريعا تاركًا كرسيّه، في تلك اللّحظة انفجر ينبوع أصفر من تحته، مسحت "عفاف" دموعها سريعا وأتت بالقنّينة، ملأت منه قليلا، فتفجّر الثّاني من أصل الأوّل وكان أرجوانيًّا، فملأت القنّينة منه للمرّة الثّانية.

" بقي الأخير... سنخرج من هذا العالم قريبا يا "عماد" ".

تفجّر الثّالث وكان أقوى حتّى أنّه دفع "عفافًا" إلى الخلف وكاد يسقطها لولا "عماد" الذي أمسك بها، عادا إلى "المنبع" ذاك وملآها ببعض من هذا الماء الفضيّ، فاستحالت الألوان جميعا إلى الأبيض، امتزجت أخيرا، فعلاها نعم، فعلاها في الأخير معا كما جاء في الرّسالة، نظر أحدهما في الآخر، ابتسما وانتظرا ثورة المياه التي ستصير بحارًا ثلاثة، وكذلك كان الأمر، زادت قوّة المياه فغمرت المكان بسرعة، النّظرة الأخيرة بين "عفاف" وعماد" كانت نظرة امتنان متبادلة، نظرة فرحة وسعادة، فهاته البحار ستنقلهما أخيرا خارج هذا العالم الذي ربطهما فيه، لكنّه تركهما يعيشان لحظات فريدة، غمرتهما البهجة، إنّها لحظة الانتصار، تمسّكا ببعضهما رغم صعوبة الأمر، رغم الحياء والخجل، إلاّ أنّها الطريقة الأضمن التي ستجمعهما عند الملكة، الملكة العجوز، مفتاح باب العالم الواقعيّ.

غمرتهما الأمواج فغرقا فيها، طوعًا تركاها تأخذهما إلى المكان المطلوب، دون خوف أو فزع، بل بطمأنينة نفس كبيرة.

....

في تلك اللّحظة وفي العالم الآخر...

" انظر يا "خالد" ... انظر".

" ماذا؟".

" اصبعه، تحرّك توًّا".

" لا ... لا تمزحي معي".

" أقسم لك أنّي رأيته تحرّك الآن".

بقيا مركّزين في يد ابنهما "عماد" المستلقي على السّرير، أتى "خالد" وليلي" لزيارة ولدهما المشارك للغرفة التي فيها "عفاف" أيضا، كلاهما لا زالا في غيبوبة عميقة، على حسب ما كانا معتقدين بالطّبع، وفي لحظة من اللّحظات، حرّك خنصره، لم يكن توهّما منهما، كلاهما رأيا المعجزة تتحقّق أمامهما، طارا من الفرحة وباتا يصرخان داخل الغرفة، أتى الطّبيب مسرعا رفقة ممرّضيْن، طالبهما بالهدوء فهما في مستشفى، لم يستطيعا التحكّم في نفسيهما فسالت دموع الفرح غزيرة دون توقّف، في نفس الوقت نبّهت الممرّضة الطّبيب على تحرّك أصابع الفتاة أيضا، إنّهما يخرجان من غيبوبتهما رويدا رويدا ...

طلب الطّبيب من الوالدين الخروج ريثما يفحص الشّابين، وهما في قاعة الانتظار اتّصل "خالد" بـ "كريم" وزفّ له الخبر... فرحة لا توصف.

إنّها العودة...

العودة الأكيدة من ذاك العالم ...

لكن متى؟

متى يستيقظان يا ترى؟

أدخلا المفتاح في قفل الباب ليفتحاه ...

سيفتحانه ...

ويعودان ... اقتربا كثيرا ...

أوشكا على ذلك ...

نعم ... أوشكا.

*****

الفصل الخامس

العودة

بعد فحص الطّبيب لكلا الشّابين زفّ الخبر المفرح للأولياء:

" بدآ يستجيبان للوخز، وحتّى اللّمس، ردود الفعل ضعيفة لكنّها موجودة، وهذا مؤشّر جيدّ جيّد، نرجو أن تتحسّن حالتهما أكثر ويخرجا من غيبوبتهما عن قريب".

عاد الأمل من جديد وصار التمنّي تطلّعا، فرحة عارمة، وشكر كبير تلقّاه الطّبيب ومساعدوه على المتابعة والاهتمام بحالتي "عماد" و"عفاف"، من الفرحة تنازلت العائلتان عن التّعويض الماديّ الذي أقرّه القاضي في حقّ سائق الشّاحنة، لربّما كان الصّفح والغفران سببين آخرين في تحسّن حالتهما، فالله يجازي الحسنة بأحسن منها.

....

غمرت المياه المكان، صارت بحارا ثلاثة أتت على كلّ شيء، انفجرت المياه المنهمرة من كلّ مكان، البنايات وناطحات السّحاب، من الأرض ومن السّماء، اختلطت الألوان وأخذت معها السيّارات وأعمدة الكهرباء والأشجار وكلّ ما كان في طريقها، فيضان عظيم غطّى المدينة بأكملها، موجُه بلغ القبّة الرّماديّة فكاد يلامسها، الموج يضرب الموج كجبال تتقاتل، إلى أن انخفض فجأة في لمح

البصر، وكأنه ستار أُنزل على مشهد من مشاهد مسرحيّة بفصول، ابتلعت الأرض الخضراء ذاك الفيضان وكأنّه لم يكن، وترك "عمادًا" و"عفافًا" على الأرض العشبيّة تلك مستلقيين غائبين عن عالمهما، لم تمرّ دقيقة حتّى استعاد الشّاب وعيه، كانت الفتاة بجانبه مطروحة على الأرض وبيدها القنّينة سالمة، نهض بسرعة وهزّها هزّا حثيثا حتّى استيقظت هي الأخرى.

" ماذا حصل؟ أين أنا؟".

" لا أدري، المهمّ في كلّ هذا، أأنت بخير؟".

منذ بداية رحلتهما لم يطرح هذا السّؤال عليها ولم يسألها عن حالها إلى غاية اللّحظة، ما السرّ في ذلك؟ أصار يحسّ الآن ويشعر؟ أبات مهتمّا بالآخرين.

ابتسمت وردّت:

" الحمد لله، ما دامت القنّينة سليمة".

لم يلحظا أنّهما قبالة قبّة زجاجية ضخمة، حتّى سمعا صوتا قويًّا آتيا منها، صوت عجوز نادتهما قائلة:

" اللّعنة عليكما، أسرعا بالدّخول فورا".

انتفض الشّابان لما سمعاه، ذكّرته "عفاف" بما أتى في الرّسالة:

" إنّها الملكة العجوز، تلك التي من المفروض أن تغتسل بماء البحار السّبعة هذا".

لم يجبها واكتفى بالإشارة إليها أن تسرع وإيّاه بالدّخول، اقتربا من جدار القبّة تلك وإذا بباب يُفتح، ولجا فوجدا الملكة تلك واقفة وسط هاته الأرض

الخالية من العمران، مستندة على عكّاز ذهبيّ، كانت قصيرة القامة محدودبة الظّهر، نحيلة نحيلة، شعرها، ويا للعجب، طويل لامس الأرض، لم تتوقّف عن تحريك فمها لحكّ لحم أسنانها جرّاء غياب الأسنان، لكنّ ثوبها الفضيّ المرصّع بالجواهر وحده كفى بجعلها في العين بحقّ ملكة، ملكة دون عرش، دون خدم، دون حرّاس ودون شيء.

" لم أفهم يا "عفاف"، أهذه هي الملكة المقصودة؟".

" ومن غيرها؟ ألا ترى أنّها عجوز كما أتى وصفها؟ ثوبها يدلّ على ذلك على كلّ حال".

" ملكة وحدها؟ دون أبّهة؟ أين الحرس والجنود والخدم و...".

تقاطعه بصرخة هزّتهما من الدّاخل:

" ماذا بكما؟ ستبقيان هنا واقفين ليومٍ أو يومين؟".

لم يتحرّكا من مكانيهما.

" ألم تفهما ما قلت؟ قلت اقتربا بحقّ الإله".

اقتربا خوفا منها حتّى باتا قاب خطوة منها.

" الأمل".

" ماذا؟".

" الأمل".

" لم أفهم ما قصدته يا "عفاف" ".

" تبّا لك ... اعطني القنّينة".

أسرعت الشّابة بإعطائه ما أرادت، ثمّ سلّمها إيّاها وانتظرا ماذا سيحدث، مدّت العجوز يدها نحوه فارتعشت ولم تستطع أخذها.

" اسكب القنّينة عليّ".

نظر "عماد" في "عفاف" مستغربا، غير أنّها لمّحت له بأن يقوم بما طلبت منه، فتحها وسكب ماء الأمل الأبيض عليها، غمرها من رأسها حتّى قدميها، وبقدرة قادر بدأت تلك العجوز في التحوّل، نعم بدأت ملامحها تتغيّر، زاد طولها كثيرا حتّى فاق طول الشّابين، تلوّن شعرها في لحظة، صارت شابّة رائعة الجمال بشعرها الذهبيّ وبشرتها البيضاء، عيناها اللّوزيتان الكبيرتان تخطفان الأبصار، ابتسامتها السّاحرة زيّنتها شفاه حمراء كخاتم برّاق، قوامها قوام تمثال امرأة نُحت ألف سنة، ذاك العكّاز صار عصا رفيعة، زادها هيبة وجمالا، الآن فقط، صارت ملكة بحقّ وحقيقة.

ذهل الشّابان ممّا رأياه توّا، فقال "عماد" مندهشا:

" سبحان الله، سبحان مغيّر الأحوال".

" بالفعل لم أجد الكلمات المناسبة لما أراه، إنّها حسناء بارعة الجمال".

ابتسمت الملكة وخاطبتهما:

" أخيرا نجحتما فيما رمتما إليه، أحييتماني بماء الأمل وأعدتما إليّ مشاعري الضّائعة، بها أعيش وأحيا في هذا العالم، لولاكما لخسرت تاجي وملكي فقد انفضّ عليّ الكلّ ولم يعترف أحد بي لفقري وحاجتي لما أُخذ منّي عُنوة".

تدخّل "عماد":

" من هذا الذي أخذ منك مشاعرك؟".

" إرادة العالم المظلم".

نظرا في بعضهما ولم يفهما المقصود، لكن كان لـ "عفاف" سؤال آخر، سؤال خطر ببال الشّاب ولم يطرحه:

" من أنت بالذّات؟ من تكونين".

نظرت فيها وردّت مبتسمة:

" لا أستطيع إخبارك، اعلمي فقط أنّي ملكة، ملكة هذا العالم".

" ومتى نعرف حقيقتك الكاملة؟".

" لست أنت بل هو، هو الوحيد الذي سيعرف من أكون بالفعل".

اندهش "عماد" وسألها من جديد:

" أنا فقط؟ لماذا؟ ومتى ذلك؟".

" ليس الآن، في الوقت المناسب".

جمعت كفّيها وكأنّها تدعو، فظهرت ثلاث شموع مشتعلة.

" أمسك بواحدة، ولتمسك هي بواحدة، أمّا الوُسطى فأمسكا بها مع بعض باليد الأخرى".

ماذا يحدث أيضا؟ لماذا طلبت منهما ذلك؟

" هذا هو بابكما الذي ستفتحانه للعالم الآخر، عالمكما الذي عشتماه وستكملان العيش فيه إلى حين، بعد هذا لن تعودا إلى هنا، لربّما لن تتذكّرا حتّى ما مررتما به هنا منذ الخطوة الأولى التي خطوتُماها على هاته الأرض،

هذا وارد نعم، لكنّ الأهمّ الآن هو عودتكما إلى العالم الذي تنتميان إليه، فتلك أولويّة الأولويّات".

" لكن لماذا هاته الشّموع بالذّات؟".

" لا تسألي فتضيعين".

" نمسك بها الآن ونعود؟".

" افعلا ما أمرتكما به، وستدركان المقصود في حينه".

" حسنا".

اقتربا منها، أمسك "عماد" بالشّمعة الأولى بيده اليمنى، أمّا "عفاف" فأمسكت بالثّانية بيدها اليسرى، نظرا في بعضهما البعض، إنّها لحظة الحسم، لحظة الرّحيل والعودة إلى الحياة الطّبيعيّة، ابتسما لبعضهما، وقالا في نفس الوقت وبصوت واحد:

" نلتقي هناك إن شاء الله".

أمسكا الشّمعة الوسطى، فأحاطت بهما قوّة عجيبة حملتهما فطارا إلى السّماء، طارا بسرعة فائقة حتّى أنّ النّفس كاد ينقطع، اخترقا طبقات السّماء حتّى إذا صارا إلى سماء داكنة الزّرقة صرخت "عفاف" خائفة:

" "عماد"، "عماد" لقد اجتزنا السّماء، سنخرج ... سنخرج".

" لا تخافي، تشبّثي جيّدا بالشّموع هاته، لربّما هي التي تقودنا إلى عالمنا".

لم تنطفئ تلك الشّموع رغم السّرعة الهائلة والرّياح العاتية، أكملا طريقهما حتّى وصلا إلى السّماء السّوداء، إلى الفضاء، بقيا يسبحان فيه

وسط فراغ مهول، أين الأرض؟ أين الكواكب والنّجوم الأخرى؟ لم يجدا شيئا من ذلك، انتابهما خوف كبير، ظنّا أنّهما أضاعا طريقهما وضاعا في عالم موازٍ.

" والآن ماذا نفعل؟".

" لا أدري يا "عفاف"، والله لا أدري".

" ربّما علينا أن ننتظر".

" ننتظر ماذا؟".

"ننتظر حصول شيء".

" صدقًا، لا أظنّ أنّه سيحصل شيء ونحن هنا وسط الفراغ نسبح".

نظرت "عفاف" حولها فلم تجد غير الشّمس من بعيد ترسل أشعّتها نحوهما.

" لا جود سوى للشّمس".

" نعم لاحظت ذلك".

فجأة سمعا صوت الملكة مدوّيا في أركان هذا الفضاء:

" إنّها فرصتكما التي لا تعوّض، الحقا بالشّمس واتّحدا بها".

" ماذا؟".

" ثقا بي ولا تضيّعا الوقت، استعملا خيالكما وانطلقا نحوها ولا تتركاها تبتعد، إنّها سبيلكما الوحيد للخروج من هذا الفراغ".

" حسنا حسنا".

أغلقا أعينهما وأمسكا ببعضهما، وإذا بجسديهما يتحرّكان نحو الأمام، نحن تلك الشّمس البعيدة، بسرعة الضّوء أو أسرع، كلّما اقتربا شعرا بحرارة هذا النّجم العملاق، لكنّها حرارة غير حارقة أو مهلكة، مهما تقدّما كانت ثابتة غير متغيّرة، حتّى إذا صارت الكرة العملاقة أمامهما حوتهما بسرعة، جذبتهما إلى الدّاخل، فارتطما بتلك الأنفاس الغريبة، واخترقتهما ألسنة اللّهب المتسابقة عليهما، لم يجدا في تلك اللّحظة سوى الاستسلام لهذا الشّعور الرّائع، وكأنّ أحدهم ينقلك من متعة إلى أخرى، دون توقّف، ودون حدّ.

إنّا اللّحظة ...

لحظة الحقيقة ...

بصعوبة فتح عينيه، فوجد ملائكة الإنس بانتظاره، استيقظ، نعم استيقظ أخيرا من غيبوبته.

فرحة الطّبيب والممرّضين لا توصف، تزامن ذلك مع استيقاظ "عفاف" والتي كانت في الجهة الأخرى غير بعيدة عنه، فرحتان إنجاز عظيم بالنّسبة للفريق الطبيّ الذي سهر على راحة الشّابين واستقرار وضعهما، سرعان ما وصل الخبر للأولياء، كانوا جميعا على أهبة الاستعداد لتلقّي ما يفرحهم، فقد عاشوا على أمل استيقاظهما منذ أن تحرّكت أصابعهما في ذاك اليوم، وها قد تحقّقت أمنيتهم.

قفزوا، صرخوا فرحا، تعانق الأزواج وبكوْا كما يبكي الأطفال، إنّ عودتهم إلى الحياة كان أقصى ما أرادوه، ردّدوا شكرهم لله وحمده، ولم تسعهم الكلمات فزادوا ولم يتوقّفوا.

أرادوا رؤيتهما، فنصح الطّبيب أن يتركوهما ليستريحا أكثر ويتأقلما من جديد مع عالمهما الذي فارقاه منذ مدّة ليست بالقصيرة، كذلك غياب الذّاكرة أمر وارد في مثل هاته الحالات، ومن المؤسف أن تفسد الفرحة بإنكار الولد أو البنت من يكون والداهما ولو لفترة قصيرة، وكما هو معروف، التّحاليل الطبيّة ومراقبة الوضع عن كثب من أولويّات مهام الطّبيب ومساعديه، ولا يكون ذلك إلاّ إذا تفرّغ لهما.

كانوا جميعا على أحرّ من الجمر لرؤيتهما، بعد يوم تمكّنوا من الدّخول مع مرافقة طبيّة، وأخيرا كان اللّقاء.

قفزت "ليلى" على سرير ابنها مقبّلة إيّاه في كلّ مكان هوت فيه شفتاها، كالمجنونة فاقدة العقل، أمّا "خالد" فتوالت دموعه مع عناقه الحارّ لولده، كان "عماد" تعبًا لا يستطيع حتّى ردّ العناق أو شكر الأمّ، اكتفى بتحريك رأسه وذرف الدّموع، من الجهة الأخرى كانت "عفاف" أكثر حظّا منه، فقد استعادت عافيتها بسرعة، لم تتأثّر ذاكرتها، بادلت قُبل وعناق أبيها وأمّها، لكن بحذر، فمازالت قواها خائرة، لكن الفرحة عوّضت عنها غيابها عنهما.

بين نوم ويقظة، قضى "عماد" أيّامًا أخرى تحت المراقبة، إلى أن استعاد عافيته، وصار باستطاعته أن يقف ويمشي، لكنّه في عالمه الحقيقيّ الآن، العالم الذي عاشه ويعيشه، كلّ ما يقع حقيقة لا يمكن تغييرها كما الحقيقة التي صدمته اللّحظة:

" ماذا؟".

" نعم يا ولدي، غادرت المستشفى البارحة".

" غادرته؟ بموافقة الطّبيب؟".

" بالطّبع بموافقة الطّبيب، وستغادره قريبًا أنت أيضا".

لاحظت "ليلى" علامات الحزن والأسى على وجه ابنها حينما عرف أنّ "عفافًا" قد تركت المستشفى وعادت إلى بيتها، من غير المألوف أن يظهر مشاعره، هو في الأصل غير معترف بها، فما الذي حصل؟

" أأنت بخير يا "عماد"؟".

" نعم ... نعم أنا بخير".

" أراك شاردًا".

" لا تقلقي يا أمّي أنا بخير".

" سيأتي أبوك ببعض الفواكه، ستنفعك يا ولدي، كما أنّ طعام المستشفى طيّب وصحيّ".

" لست جائعا، ربّما فيما بعد".

" كما تريد".

ابتسمت الأمّ وهي تنظر في ابنها، أحسّت بسعادة غريبة، صار "عماد" متفاعلا مع ما يحدث خارج عالمه الضيّق، إنّه يشعر من جديد، ويعبّر عمّا يحسّه تلقائيًّا دون حسابات مسبقة، مجرّد ردّة فعل آنيّة عفويّة لما حصل اللّحظة، مهما كان الشّعور فيبقى ذلك بشارة خير.

لم تطل إقامته في المستشفى هو أيضا حتّى خرج منه، لكن مع نفس الحزن الذي اكتنفه فبقي معه وطال.

في أحد الأيّام وفي جلسة عائليّة فتح "خالد" الموضوع بصراحة:

" ما بك يا بني؟ أنت الآن معنا، والحمد لله أنّك اليوم سليم معافى، فما الذي شغل بالك ووتّرك إلى هذا الحد؟ منذ خروجك من المستشفى وأنا أراك ضائعًا في نفسك غير مبالٍ بنا".

لم يردّ عليه فتدخّلت الأمّ:

" يا ولدي، أنا أمّك وهذا أبوك، إن كان هناك أمر تودّ الحديث فيه معنا فنحن هنا، اعتبرنا أصدقاءك، تكلّم فيما تريد".

نظر فيهما نظرة المقاتل المصاب الخارج من حرب خاسرة، نظرة المهموم المكروب، نظرة من تعب من كلّ إنسان، ومن كلّ شيء:

" لا شيء، لا تقلقا عليّ، ربّما تعب بسيط ليس إلاّ".

ما قاله مجرّد كذبة لإخفاء أمر شكّا فيه، نظر "خالد" في "ليلى" ففهمته.

" كما تريد يا ولدي، على كلّ حال نحن ندري أنّ هناك أمرًا يضايقك، لكنّك لا تريد الكلام فيه معنا".

توتّر أكثر وبان عليه صدق ما قالته أمّه.

" أمّك محقّة، لا تريد الحديث معنا في هذا الأمر، ربّما تريد أن يبقى سرًّا معك، لكن كن متأكّدا أنّك لن تتخلّص ممّا يثقل صدرك إلاّ بإخراجه، بالوصول إلى حلّ لمشكلتك، وهذا لن يكون إلاّ بالحديث مع إنسان يفهمك ويدرك جيّدا حالتك، فيساعدك للخروج من النّفق المظلم الذي أنت فيه".

هاته الكلمات كان لها وقع في نفسه، ما قالاه توًّا كان حقيقة، هو يشعل بالوحدة الآن، في عالمه السّابق مرّ بمراحل وتجاوز صعوبات، لكن مع إنسان

قاسمه كلّ شيء، بل قدّم ما لديه من أجل أن تبقى "عفاف" بقربه ليكملا ما بدآه معا، كانا في سعي حثيث للخروج من ذاك القفص الذي سجنهما، غير أنّ الحريّة أفقدته لذّة البقاء معها، وكأنّه يريد العودة إلى غيبوبته حتّى يلتقي بها، يريد أن يلتقيها مرّة أخرى، ليشكرها فقط، ليراها مرّة أخيرة وحسب، وكأنّ ذهابها دون توديعه وعودتها إلى حياتها ترك حرقة في نفس "عماد"، لكن كيف؟ يطلب من والديه أن يستضيفا عائلتها بحكم القرابة التي باتت بعد الحادث؟ لا مستحيل، سيتفطّنان لما يروم، سيدركان أنّ ولدهما قد تعلّق بالفتاة بشكل غير طبيعيّ وغير مفهوم، فقرّر السّكوت والبحث عن طريقة توصله إليها بما انّه يعرف العنوان الذي تقطن فيه عائلة "عفاف"، لكنّ ردّ القدر كان قاسيًا، فقد رحلت العائلة إلى بلدة ريفيّة بعيدة، رغبة في تغيير الجوّ والبداية من جديد، هاته المرّة دون ترك عنوان، وبقيت وسيلة التّواصل الوحيدة بين العائلتين الهاتف.

وقع هذا الخبر على قلب "عماد" كالصّاعقة، وأفنى فيه شعلة الأمل الضّعيفة في ملاقاة "عفاف" ليُطفئها بنفخة، ساءت حال الشّاب منذ ذاك اليوم، وشابه وضعه الحاليّ ما عاشه حينما التقى أمّه الحقيقيّة ورفضته، ثمّ حينما عرف بالحقيقة الشّنيعة كاملة عن عائلته، ربّما الحلّ في الذّهاب إلى تلك البلدة والبحث عنها؟ لا هذا الجنون بعينه، كما أنّ تجربته الأولى مع أمّه كفته، لا يريد أن يعيش نفس الكابوس.

إنه يعود إلى القاع، غاص عميقًا في ظلمات جحيم لا تنتهي، هزُل مرّة أخرى وانطوى على نفسه أكثر، حتّى نفذ صبر الوالدين وصار من الضّروريّ أن يتعاملا بحزم معه، دخل عليه أبوه وهو في غرفته ملفوفًا في غطائه:

" أهكذا يكون شابّ في مقتبل العمر؟ ضعيفًا خائفا من مواجهة مشاكله؟".

لا ردّ.

" ستبقى هكذا؟ بقيّة حياتك؟ هكذا ضائعًا دون أن تجد طريقك؟".

لا ردّ أيضا، بل لم يتحرّك حتّى.

" حسنًا، إن لم ترد التكلّم معنا فلا بأس، لكن على الأقلّ كلّم من يمكنه مساعدتك إن اعتقدت أنّنا عاجزان عن ذلك".

دائمًا ساكت لا يتحرّك، منكمش في زاويته التي ملّت منه، اقترب منه أكثر ورمى عليه بطاقة زيارة للطّبيب النّفسانيّ " إبراهيم النجّار"، ذاك الطّبيب الذي قابله وروى له قصّة ولده، ثمّ دون إضافة كلمة خرج وأغلق باب الغرفة وراءه.

" أصواب ما فعلته يا "خالد"؟".

" هذا هو الصّواب، الخطأ حينما نسكت وننتظر الفرج دون تحرّك، إن لم يذهب إلى الطّبيب في هذين اليومين مضطرّ لأن آخذه عنوة حتّى دون موافقته، وسأستعمل أسلوب التّرهيب أيضا".

قالها غاضبًا مضطربًا.

" حسنًا حسنًا لا تقلق، سيصفو ذهنه ويستجيب لا محالة، فلا حلّ آخر إلاّ بزيارة مختصّ".

"سنرى ماذا سيفعل".

اليوم الموالي، بعد العشاء بقي الوالدان في غرفة الضّيوف يشاهدان التّلفاز، وكانت المعجزة أن انضمّ إليهما ابنهما "عماد"، فبقيا ينظران في بعضهما غير مصدّقين لما رأياه، جلس بالقرب منهما ولم يطل فقال:

" غدا إن شاء الله سأزور الطّبيب ذاك، وسنرى".

ابتسمت الأمّ فرحة بما قال، كذلك فعل الأب، غير أنّهما لم يظهرا تلك الفرحة التي اجتاحتهما وأبانا عوضه عن حزم غير معهود مع ابنهما:

" كان من المفروض أن تستيقظ باكرا وتذهب، كلّ تأخير يؤثّر عليك وعلينا جميعا".

" صحيح ما قاله أبوك".

سكت قليلا ثمّ ردّ:

" لا بأس، الوصول متأخّرا خير من عدم الوصول".

لا زال في عناده، غير أنّه تيقّن أنّ الحلّ لمشكلته ربّما يكون على يد هذا الطّبيب، فقد زاد همّه ولم يجد مخرجًا ينقذه من سجن نفسه.

كذلك كان الأمر، في الغد استيقظ صباحا وجهّز نفسه للذّهاب عنده، اقترح عليه أبوه أن يذهب برفقته فرفض قائلا:

" تلك مشكلتي، سأكون مرتاحا أكثر لو كنت مع الطّبيب وحدي".

تفهّم الأب الأمر وتركه يذهب، على كلّ حال يعرف الابن جيّدا عنوان مكتب الطّبيب، فانطلق عازمًا وكلّه إصرار على تجاوز محنته، غير أنّ هاته العزيمة بدأت بالتّلاشي كلّما تقدّم، فقد أُصيب بخيبة أمل من هذا المكان الموحش المقرف، كلّ هاته القمامة التي تعمّ المكان، وهذا الحيّ الذي لم يبق

له سوى نفس وينهار بعماراته الخربة وأرصفته المقلوبة، الرّوائح هنا نفّاذة، اجتاز ذاك الممرّ الضيّق، فقابلته العمارة المطلوبة والتي لا زالت تئنّ، تكاد تستوي على الأرض، على ظهرها ألف ألف كيس، أكياس قمامة منها الممزّقة فأخرجت ما في أحشائها من قذارة، ومنها ما ينتظر، أغلق انفه وفمه وأسرع بالدّخول، كما أسرع بالصّعود خوفا من أن تنهار به الأدراج في مكان سحيق، أمام الباب هو، طرق، ففتحت له تلك العجوز الشّمطاء، وقبل أن يبادرها بأوّل كلمة سبقته:

" الآن تأتي؟ لقد أطلت".

" لكن ... لم ... اليوم أنا ...".

" ما بك تتلعثم؟ ادخل بسرعة، هناك في قاعة الانتظار".

" لكن لم أعلمك بقدومي، ولم أسجّل من قبل، لم آخذ موعدًا و...".

" تتكلّم كثيرا يا ولد ... قلت لك ادخل وانتظر".

سكت "عماد" خوفًا منها ودخل كما أمرته، فمن يملك الشّجاعة لمواجهة عجوز بمثل ذاك القبح والتسلّط؟ لم يتسنّى له وقت تقليب بصره في أنحاء القاعة حتّى نادته:

" يا ولد ... الطّبيب ينتظرك".

" لو طلبت منّي أن أترك لك اسمي ولقبي أفضل".

" وماذا أفعل باسمك ولقبك؟ لا حاجة لي بهما".

استغرب منها ما قالته، اختلطت عليه الأمور، غير أنّه قام من مكانه واتّجه نحو الغرفة هناك، طرق الباب فسمع صوت الطّبيب الغريب يجيبه:

" تفضّل بالدّخول".

دخل فدُهش كما كان الأمر تماما مع أبيه، ومن لا يُدهش بمثل هذا الدّيكور الذي يدخل في النّفس الرّعب والرّهبة، على المكتب زجاجات النّبيذ بأنواعها، والطّبيب وسطها باسط يديه على سطح المكتب منتظر قدوم الشّاب.

" وأخيرا أتيت".

" كيف علمتما بقدومي أنت والسيّدة في الخارج؟".

" تلك السّيدة تسمّى "فلاح"، وهي أمّي".

صدمة تلقّاها الشّاب.

" أنت " عماد الصّابر" ابن "خالد الصّابر"، أبوك أتى منذ مدّة وأوصاني بك".

صدمة ثانية أكبر من الأولى.

" ماذا؟ أوصاك بي؟".

" تكلّمنا في حالتك، من وجهة نظره هو وبكلّ موضوعيّة سرد لي جلّ ما تعرّضت له من مشاكل جرّاء "الصّدمة"، ردود أفعالك ولمحات عن معاملتك مع والديك اللّذان تبنّياك قبل وبعد الصّدمة تلك".

" يعني شرح لك بالتّدقيق ماذا حصل، لكن يبدو، إن لم أكُن مخطئا، أنّك لازلت متذكّرا لكلّ ما سرده لك أبي منذ آخر لقائك به، كيف هذا؟".

ضحك وأجابه:

" أنت الوحيد الذي عادني منذ خمس سنوات، وحالتك هي الحالة التي شجّعتني للعودة إلى ممارسة التّطبيب بحقّ، من الطّبيعيّ أن لا أتذكّر سواها".

لم يفهم "عماد" المقصود، حتّى أردف الطّبيب بالتّوضيح:

" لا أهتمّ إلاّ بالحالات النّادرة، والتي تستحقّ بذل الجهد والوقت، أمّا صراع الأزواج، الموظّفين مع مديريهم، والأزمات النّفسيّة النّاتجة عن الانفصال قبل الزّواج بين الحبيب وحبيبته، هذا إن كانا كذلك، فلا تهمّني مطلقا، تشعرني بالضّجر".

هذا الأصلع مجنون بالفعل، شخص يفكّر بهاته الطّريقة لابدّ وأنّه في الأنانيّة وحبّ الغرائب سيّد.

" على عكس ما رواه لي أبوك، لست في الحالة النّفسيّة التي انتظرتها، دخولك كان عاديًّا، رغم صدمتك المعقولة بما يوجد على المكتب، وهذا أمر طبيعيّ فالكلّ يُدهش حينما يراني أستقي من هاته المهدّئات وأرتّبها هكذا بعناية لتظهر للعيان بشكل جميل، إذا جاوزنا ردّة الفعل العاديّة هاته، فلست مصدومًا تماما كما اعتقدت".

" أوّلا الخمور والكحول ليست بمهدّئات بل حاضنات أنواع من السّرطان، دون نسيان تليّف الكبد وتدهور الجهاز العصبي، ثانيا، أنا مصدوم، أعترف بذلك، لكن ليس كما كنت، أو لنقل ليس بالصّدمة الأولى، بل بأمر آخر حدث لي مؤخّرا، أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابة، لم أتحدّث في الأمر مع والديّ، لن يفهما ما أشعر به ولن يتفهّما، ربّما أجد عندك الجواب".

انفجر الطّبيب ضاحكا أمام النّظرات الحائرة للشّاب.

" أحقّا أنت الذي أنكرت وجود المشاعر وفضّلت هجرة البشر ولم تصدّق حتّى بالإنسانيّة؟ والآن تعترف بأنّ لك شعورا ولم يفهمه والداك؟".

لم يعرف الشّاب بماذا يردّ، ما قاله الطّبيب صحيح، هو محقّ.

" اسمع جيّدا ما سأقوله لك يا ولدي قبل أن نبدأ حصّتنا العلاجيّة، المشاعر موجودة فينا ليست تحصيل حاصل، مغروسة في ذواتنا بألوانها ودرجاتها، تظهر للعلن نعم، هناك من يفهمها وهناك من يجهل ترجمتها الحقيقيّة، لكن من أنكرها فهو المجنون، لأنّ حياة الواحد فينا لا يمكن أن تكون دون تبادل لأنواع المشاعر والإحساس بها حتّى نضمن التّواصل الاجتماعي الذي يعيش به الإنسان مع أخيه، ستقول لي هناك من المشاعر ما هو سلبيّ غير محبوب، نعم، كما الحزن، التشاؤم، الغضب، القلق وغيرها، إلاّ أنّها في المقابل تعلّمنا نقيضها إن ألجمناها بميزان العقل، وتحيي فينا الأمل وتكسبنا الشّجاعة التي نحتاجها حينما نجتازها ونتخطّى بعدها عقبات أخرى أشدّ وأقوى، المشاعر تعلّم لا تدمّر، نفيها يعني نفي تطوير النّفس وتحسينها، وهذا غير معقول".

صحيح، ما قاله منطقيّ، كيف كان يفكّر "عماد"؟ كيف جرفه الاستياء إلى الاعتقاد بأنّ المشاعر مجرّد أدوات يستغلّها الإنسان وقتما احتاج تلبية رغبة من رغباته، ليست تعبيرا عن ذاته أو تنفيسا عن مكنوناته، كيف صدّق ذلك؟

ألهاته الدّرجة أعمته تجربته السّلبيّة عمّا هو أفضل وأجمل؟

نعم، الآن فقط بات يبصر.

سكت مطوّلا وهو يفكّر فيما قاله الطّبيب، زان كلامه بميزان العقل الرّاجح فوجده مطابقا للحقيقة والواقع، ولو أنّ بعض البشر يستغلّون هاته المشاعر لأغراض شخصيّة إلاّ أنّهم لا يحسّون بها بالفعل، وإنّما يمثّلونها لقضاء حاجة في نفس يعقوب، وهاذ هو الاختلاف بين من يشعر بكلّ تلقائيّة فكان إنسانًا صادقًا، وبين من يخطّط للشّعور ويمثّله فهو خبيث مخادع.

" فهمت كلامك، لكن ما سمعته كان فقط جزءً بسيطا من القصّة، ما حدث لي بعدها أغرب من الخيال".

فتح الطّبيب عينيه وقال:

" هذا الذي أبحث عنه، الشيء الذي غيّرك من حالة إلى أخرى".

وقف الطّبيب ودعا "عمادًا" لأن يستلقيّ على سرير قديم وسخ، اعتذر عن ذلك لكنّ الطّبيب أصرّ ففعل، أتى بكرسيّ وفي يده زجاجة نبيذ ثمّ جلس بجانب عماد وقال له:

" أغلق عينيك واسرد لي كلّ شيء، من بداية البدايات وصولا إلى هاته الحادثة، لا تنس التّفاصيل التي تتذكّرها".

روى الشّاب للطّبيب مرّة أخرى كيف عاش مع "خالد" و"ليلى" وأطال، لحظات الحزن والفرح التي عاشها معهما، الحادثة التي عرف من خلالها أنّه متبنّى، كيف أحسّ وماذا فعل، حالته النّفسيّة في تلك الفترة مرورا بيوميّاته، وصولا إلى حادث المرور ودخوله في غيبوبة، سرد له كلّ الأحداث التي عاشها في حلمه الغريب، وكأنّه عاشها مرّة ثانية، بدقّة وبتفاصيل لم ينسها، ذكر له "عفافًا" وكيف صاحبته في هاته الرّحلة وهي التي أنقذته من الموت في الواقع

وفي العالم الآخر، كانت معه حتّى أفلحا في الخروج من غيبوبتهما معا، حدّثه عن رغبته الشّديدة في رؤيتها، وعن المشاعر غير المفهومة التي تخالجه ...

تقريبًا ساعتان والطّبيب يستمع إلى "عماد"، دون كلل أو ملل، كلّما وصل إلى حادثة مشوّقة شرب كميّة من النّبيذ، حتّى أفرغ القارورة بنهاية ما روى.

" هذا الذي كان، آسف لأنّني لم أستطع أن أبقي عينيّ مغلقتان فالحديث ذو شجون وقد ...".

قاطعه:

" لا عليك، لقد قمت بما يجب وأكثر".

" إذن؟ ما رأيك؟".

وقف "إبراهيم" وعاد إلى مكتبه واستلقى على كرسيّه متعبًا ممّا سمع، منبهرا بما حصل لهذا الفتى.

" أستطيع الجلوس الآن؟"

" كلاّ ابق مستلقيًا".

" حسنًا".

ساد صمت غير معهود، أدار "عماد" رأسه ببطء نحو المكتب وإذا بالطّبيب ينظر فيه متعجّبا، بقي كلّ واحد فيهما ينظر في الآخر دون كلام، إلى أن أتت اللّحظة التي انتظرها الشّاب.

" إنّه الحلم المشترك، حالة جدّ نادرة تقع بين الحالمين، شخصان اثنان تربطهما رابطة قويّة منذ زمن فتنعكس بمشاعرها في هذا الحلم الذي

يشتركان فيه حتّى التّفاصيل، لكن إلى هذا الحدّ غصتما أعماقه وتقاسمتما أحداثه؟ أمر الغريب، على حدّ علمي لم يحصل هذا من قبل".

استغرب "عماد" فسأله:

" لكنّي لم أكن أعرف "عفافًا" قبل الحادث، لا أتذكّر، لم ألتق بها من قبل على ما أعتقد".

ابتسم الطّبيب وردّ:

" بل التقيتها ولم تتذكّر، ربّما تكلّمتما ووقعت بينكما أمور، تشاركتما في أشياء ومشاريع ربّما، أثّرت فيك حينها وأثّرت فيها بشكل كبير، لكنّك نسيت".

" أنسى أمورا مثل هذه؟ مستحيل، وخصوصا فتاة كـ "عفاف"، من غير الممكن أن أنساها هكذا ببساطة".

" يمكن نعم، ربّما حادث أثّر على ذاكرتك في الماضي، فمحا جزءً من هاته الذّكريات، لكنّ أثرها لازال في نفسك عميقا، جهلت مصدره ولم تعرف كيف تفسّره، ربّما لم تبحث لكنّه موجود".

حاول الشّاب تذكّر صورة "عفاف" أين رآها من قبل؟ قلّب صفحات ماضيه ولم يجدها، ثمّ تذكّر أمرا، أمرا مهمّا لم يكن ليعيره كلّ هذا الاهتمام:

" في سنّ الخامسة عشر، في المتوسّطة، سقطت من الطّابق الأوّل سقطة أثّرت عليّ كثيرا، أصبت في رأسي وكتفي، لكن بعد قيامي بالأشعّة طمأنني الأطبّاء وقالوا مجرّد كسور ورضوض غير عميقة، أثرها كان سطحيًّا في الجمجمة، ربّما كان أثر السّقطة أعمق وأقوى وظهر ذلك فيما بعد أليس كذلك؟".

" يمكن نعم، فلا تفسير منطقيّ آخر لعدم تذكّرك إيّاها وهي التي شاركتك الأحداث وكانت في غيبوبة مثلك، حتّى أنّكما استيقظتما مع بعض"

" يعني بتعبير آخر، أنا أعرف "عفافًا" منذ مدّة، ربّما منذ سنوات، وقعت بيننا أمور، تعرّفنا على بعضنا، تأثّرت بها وتأثّرت بي، فكانت تلك الرّابطة القويّة بيننا غير أنّ حادثة سقوطي محت هاته الذّكريات وأبقت على أخرى، هي من جهتها لازالت تتذكّرني لكنّي نسيتها، أهكذا كان الأمر؟".

" بالتّقريب نعم".

" ثمّ وبالصّدفة، وبين الآلاف في هاته المدينة، بالذّات هي التي قفزت محاولة إبعادي عن طريق الشّاحنة، كانت في المكان والوقت المناسبين تماما، فواجهنا نفس المصير، دخلنا الغيبوبة معا وعشنا أحداثًا تفوق الخيال".

" وهو كذلك، غير أنّي لا أوافقك حين قلت "صدفة"، إنّه "القدر"، القدر الذي لا تحسب له حسابًا فيطلعك على ما خفي عليك ويبهرك على حين غفلة من أمرك".

" يصعب عليّ تصديق هذا، اختلطت عليّ الأمور بالفعل، كيف لأمور مثل هاته تحدث وبالدّقة التي ذكرت؟".

" نعم يمكن أن يحدث هذا وأكثر، نحن البشر لا نعلم عن أنفسنا سوى القليل، فما بالك بما يحدث في هذا العالم؟ لازلنا جاهلين بأسرار هذا الكون وما يحويه".

بدت على وجه "عماد" الدّهشة ولازمه التّيه لحظات، إلى أن أردف الطّبيب:

" قمتما برحلة شبه روحيّة بمراحلها، وكانت متسلسلة ذات هدف، رؤيتك لها ووجودها معك لا بدّ وأن يكون مصدره الأوّل توارد الخواطر بينك وبينها، فمن شدّة الرّابط الذي كان يجمعكما سابقا، والذي فقدته، كوّنتما أحاسيس ومشاعر قويّة بينكما فقط، فُك الرّابط، لكنّ أثره فيك لازال، من جهتها هي، لازالت متذكّرة لك متأثّرة بك، ربّما لم تكشف عن ذلك في الحلم الذي عشتماه مع بعض، ربّما لم تتوفّر الفرصة، لكنّها كذلك، لهذا كان من الممكن أن تدخلا مع بعض في حلم مشترك، وقد حصل، يكفي فقط ذاك الشّعور القويّ بين شخصين، حتّى ولو كان غير مفهوم، لكنّه موجود".

" أليس التّوارد، أقصد توارد الخواطر، هو اهتمام بالغ بين اثنين؟ ينطلق من جهة من الأوّل ليصل إلى الثّاني ثمّ من الثّاني إلى الأوّل؟".

" وهو كذلك نعم".

" إن كانت هي توصل ما تحسّ وما تفكّر به لي وأنا لا أستطيع استقبال هذا المدّ لأردّه فكيف حصل هذا الأمر كلّه؟ يعني كيف اشتركنا في الحلم وما فيه وأنا لست طرفًا في تبادل الأفكار والأحاسيس؟".

أخذ رشفة من ذاك النّبيذ ثمّ وضع الكأس على المكتب وردّ:

" كما قلت لك، تلك المشاعر والأحاسيس لازالت موجودة، دفينة فيك رغم تلاشي الأحداث السّابقة والمرتبطة بها دون أن تدري، ليأتيَ القدر مرّة أخرى فيحييها في اللّحظة التي التقيت فيها الفتاة يوم الحادث، كان فيك ذاك الاستعداد لعيش مغامرة تشاركها مع من تواصلت معك في الماضي، حتّى سنحت الفرصة وكان ما كان".

بقي الشّاب صامتا.

" في الحقيقة، هذه هي المرّة الأولى التي أحسّ فيها بجدوى عملي، إنّه لمن دواعي سروري أن أعالج حالة كحالتك".

لم يأبه الشّاب لقول الطّبيب، فهمّه الأكبر أن يفهم جيّدا ما حصل له ولماذا.

" وماذا عن الحلم ذاك؟ أيمكنك تفسيره؟".

" لست مفسّر أحلام، لكن يمكنني أن أربطه بما عايشت في حياتك الواقعيّة، وأفسّر كلّ ما مررت به بمقابلته بأمور متعلّقة بحالتك النّفسيّة".

" كيف هذا؟".

" غالبًا ما تكون الأحلام انعكاسًا كما انعكاس المرآة عن حالاتنا وتجاربنا المعيشة، برموز وأشكال مغايرة مختلفة مُضافة، كلغز حلّه في فكّه، كيف؟ بالتّركيز في عناصره ومكوّناته جيّدا وتفسيرها تفسيرا منطقيًّا وربطه ربطًا صحيحا بما يوجد في الواقع، لربّما نجد الكثير من الحلول برفع الغموض الكائن في حلمكما".

" وماذا رأيت؟".

اعتدل في جلسته وانطلق مفسّرا:

" الحزن والفرح، عملاقان في صحراء قاحلة، ضائعان يبحثان عن موطن، كذلك أنت، حاولت إنكار المشاعر، فحزنك وفرحتك باتا سيّان، ضائعان، دون هويّة، رغم وجودهما إلاّ أنّ النّكران كان مصيرهما، سبيل التخلّص منهما للمرور إلى المرحلة الموالية هو الفوز عليهما في مواجهة

بإقناعهما بالشّعور بضدّ ما هما عليه، الأشياء بالأضداد تعرف، يقال إن كنت تريد السّعادة، فعليك أن تذوق أوّلا مرارة الحزن لتستسيغ حلاوة الفرح".

" فهمت".

" الغضب ملك جزيرة مفقودة، كما كان الغضب ملكا عليك، استطعت التخلّص منه بجعله يهدأ، رغم إنكارك مرّة أخرى بوجود المشاعر وجدواها، هدأ خوفا وليس قناعة منه، كذلك أنت، هدوؤك هدوء خوف، لأنّك مضطرب على الدّوام لم تجد طريقك بعد".

تذكّر "عماد" ما قالته "عفاف" بعد مواجهتهما في أنّه يشبههم، هدوؤه غير طبيعيّ، ليس كما يشعر به الإنسان العاديّ، هدوء تعقبه راحة، وإنّما هدوء فرضه على نفسه وهو خائف.

" الحبّ فيك ليس له ملامح، حبّ موجود نعم، لكنّه غير موجّه، لا تَشعر به كما يجب ولا تُشعر به غيرك، عام شامل لا أثر فيه، يكاد يموت، ولا أفضل من صورة الشّيخ الهرم في تجسيده، أنت أنكرته أيضا، إلاّ انّه موجود فيك، حاولت قهره عنوة فصار إلى خمول وذبول".

كما الكتاب المفتوح قرأ الطّبيب أسطره، ذاك الحلم كشف "عمادًا" على صورته الأصليّة، بقي الشّاب مستمعًا لما يقول مهتمّا بما سمع، رغم ما شعر به من "ذلّ"، إلاّ انّه تعرّف إلى نفسه من خلال كلماته، وكلّ ما قال إلى غاية اللّحظة حقيقة لا جدال فيها.

" العُجب فيك طاغٍ حتّى نسيت الإعجاب، ظننت نفسك أفضل من

غيرك وإذا أنت منهم رغم إنكارك، ورثت من هذا المجتمع القوّة والضّعف، عليك تحمّلهما، فلست أفضل من غيرك، الكره فيك عادة، غير أنّه مؤقّت، أصررت أن يكون كاملا باقيا في الزّمن، وهذا غير معقول، أمّا الخوف ...".

اهتزّ الشّاب واضطرب.

" أمّا الخوف فأنت بذاتك تجسيد له، خوفك هذا كان منذ الصّغر عائقًا يمنعك عن نفسك وغيرك، غير أنّه ومنذ لقائك بأمّك الحقيقيّة زاد وأخذ طريقًا مغايرة للخوف العاديّ، لم تعد تدرك ما تريده أو ما يريده غيرك منك لتقوقعك على نفسك وسوء الظنّ بالكلّ، احتميت ورفضت النّاس بسبب ما وقع لك، لم تعد تثق بأحد، فالكلّ أعداؤك، لا أحد يحبّ لك الخير باعتقادك، الإنسانيّة في رأيك باتت مجرّد مصالح شخصيّة ورغبة أنانيّة في الكسب والنّجاح، كلّ ذلك كان نتيجة لما شهدته وعايشته، غير أنّ ما جرّبته لم يكن الحقيقة الكاملة لهاته الحياة، فقد عمّمت مأساتك على الحاضر والمستقبل وجعلتها في كلّ إنسان قريب أو بعيد، الكلّ مشتركون في إيلامك وأذيّتك، لذا لا يحقّ لهم أن يعيشوا معك، ولا أن تعيش معهم فهم لا يستحقّونك ".

وضع أصبعه مرّة أخرى على الجرح، أصاب اللّب بحقّ.

" ماذا عن الملكة، العجوز التي صارت حسناءً فيما بعد".

" تلك نفسك التي كانت رافضة للمشاعر نابذة لكلّ ما هو جميل، نفسك التي باتت كالعجوز الشّمطاء لا تحسّ ولا تشعرّ بملذّات الحياة، حتّى إذا سقيتها بالمشاعر السّبعة الأصيلة، عادت إلى الحياة بنضرتها وجمالها الفاتن،

دليل آخر على أنّ الحياة دون مشاعر لا تكون".

" وما سرّ الشّموع الثّلاث؟ ما معنى ذلك؟".

نظر الطّبيب في "عماد" مطوّلا ثمّ أجابه:

" هذه لا أدري، فلا علاقة مباشرة بينها وبين نفسيّتك التي عانت الأمرّين، لا أستطيع الجزم بشيء".

لم يأبه كثيرا بأمر الشّموع، فقد أعجب بتحليل الطّبيب وكلامه، وصار الآن مدركًا لما سيفعله في الخطوة الموالية.

" خروجك من الغيبوبة بعد مرورك على كلّ تلك الاختبارات كان مفيدا لك، ليس لديّ ما أضيفه سوى نصيحة واحدة".

" وهي؟".

" اتّبع ما تراه صائبًا، لا تستسلم للأسى والألم، اجعل هدفك صوبك دائما، فإن حقّقته استمرّ حتّى تجد لنفسك هدفًا آخر لتحقّقه، صدّق بنفسك، وصدّق بالإنسانيّة من حولك".

" كلّ هذا؟".

" أعلم، ليست نصيحة واحدة، غير أنّها مفاتيحك لحياة ستتذوّقها بحُلوها ومرّها، ستعيشها حينئذ كإنسان".

ابتسم "عماد" ثمّ نهض، وقبل خروجه استوقفه الطّبيب:

" بقي أمر أخير".

نظر فيه متعجّبًا.

" ألفا دينار لهاته الجلسة، السيّدة "فلاح" في انتظارك".

ضحك وردّ:

" ألف تكفيك، فقد عالجتني الرّحلة التي قمت بها قبل أن آتيك".

ابتسم "إبراهيم" وعاد لكأسه، فيما خرج الشّاب وكلّه أمل في حياة أفضل، في ذهنه تدور أفكار ومشاريع، يلمها بعض الوقت لتختمر، حتّى يحقّق أحلامه التي رسمها توًّا.

" يا ترى، هل سأكون مثل هذا الشّاب قادرا على تجاوز مخاوفي وأحزاني؟ أبإمكاني أن أستغني عن هاته القنّينة وأنسى موت زوجتي دونها؟ أيمكنني ذلك؟".

تمعّن في الكأس ثمّ في القوارير تلك، رماه أرضا وكسر كلّ ما كان على المكتب، فسال النّبيذ منه أنهارا على الأرض، قال في نفسه وهو يريق أعزّ ما يملك:

" أنصح النّاس بترك عيوبهم وتجاوز أحزانهم وآلامهم، وأنا في عيبي غريق، لن تتحكّم فيّ زجاجة نبيذ بعد اليوم، سأبحث عن "مهدّئات" أخرى أسلم إن استلزم الأمر".

إنّها بداية جديدة له، للشّاب ولكلّ من استفاق وعزم على المضيّ قُدما قبل فوات الأوان.

*****

الفصل السّادس

يوم الوداع

عاد "عماد" إلى أهله غير الشّاب الذي ذهب، تغيّر في حصّة علاجيّة واحدة، كانت النّتيجة بالفعل مذهلة وغير منتظرة، سُعد والداه بهذا، وزاد أملهما فيه بعدما قرّر الشّاب أن يجتهد في دراسته ويتطلّع إلى مستقبل أفضل يغيّر واقعه، ففعل ولم يتوانى، أكمل مرحلة التدرّج بنجاح، بل بتفوّق فكان الأوّل في دفعة التخرّج الخاصّة بشعبته، تحصّل على شهادة اللّيسانس في علوم الاقتصاد والتّجارة،و أكمل ...

بعد البحث الحثيث وبإرادة قويّة لا تكلّ، تحصّل على عمل في مجال اختصاصه وفي شركة معروفة أيضا، تميّز هناك وتحسّن، بدأ بناء حياته كرجل يعتمد على نفسه، تغيّر نمط حياته كليًّا، حتّى مظهره، بات أنيقًا ووسيما، لم يعد ذاك الشّاب الذي لا يأبه لما يرتدي ولا تهمّه آراء النّاس فيه، صار اجتماعيًّا متفهّما، مسؤولا قادرا على تجاوز المشاكل ومصاعب الحياة العائليّة والعمليّة، غير أنّ الفراغ ذاك لا زال، إنّه خيال تلك الشّابة التي ذهبت دون وداع، "عفاف".

مع كلّ ما استطاع تحقيقه رغم المطبّات والعوائق، لا زال غير قادر على نسيان تلك الفتاة، ثلاث سنوات لم تكن كافية لأن تمحي صورتها من ذهنه،

في كلّ أعماله، في يقظته ومنامه، في مشيه وجلوسه، وحده أو مع النّاس، لازالت معه كالظلّ تتبعه، صبر على هذا العذاب لأنّ ما أنجزه إلى غاية اللّحظة كان من أجلها، هذا إن كانت لا تزال تفكّر فيه. كما الأيّام الخوالي بتوارد الخواطر وسحر المشاعر.

ألازالت تفكّر فيه؟ أبدأت حياةً جديدة بعيدة عنه؟ ربّما نعم، لكنّ ذلك لن يوقفه عمّا عزم، طال الوقت لكنّه اليوم مستعدّ.

في أمسية من الأمسيات تكلّم "عماد" مع أمّه وأبيه عمّا خالجه في نفسه في السّنوات الثّلاث الأخيرة، عمّا أراده، وخصوصا عمّا قرّره، سمعاه بتمعّن واهتمام، خلُصا إلى ما اعتقداه فكان يقينا.

" في الحقيقة يا بنيّ، أنا وأبوك كنّا على علم بما قلته لنا توًّا، بمجرّد النّظر فيك اكتشفنا ذلك وتحدّثنا فيه، لكن لم نرد إحراجك ولا استباق الأمور فقد كنت في مرحلة حسّاسة، الخوض في الموضوع وأنت تدرس لم يكن ملائما ولا الوقت كان مناسبا، أمّا الآن فنظنّ أنّ ما ترومه أمر نبيل، ولا شيء يسعدنا أكثر ممّا تريده، فامض إلى ما تحلم به، أباركك وأرجو من الله أن يوفّقك".

" كما قالت أمّك، اليوم أنت قادر ومسؤول، وما تريده نفرح به جميعا، عائلتينا، ومنذ الحادث، صارتا لحمة واحدة رغم المسافة التي تبعدنا عن بعضنا، على الأقلّ لن نكتفي بالهاتف للسؤال عن حالهم".

ضحك "خالد" ومعه "ليلى"، فرح "عماد" بما سمعه منهما، تشجّع أكثر وقال:

" كم أنا سعيد بموافقتكما، لن أنتظر أكثر، غدا بإذن الله سأذهب، وإن شاء الله خير".

" لكن يا ولدي ألا تريد أن نسأل لك أوّلا عن " عفاف" فيما إذا كانت ...".

قاطع أمّه قائلا:

" كلاّ يا أمّي، لا أريد، فليكن ما يكن حينما أقابلها وجها لوجه، وبحضور والديها أيضا".

ابتسم أبوه وقال:

" نحن في الانتظار، وإن شاء الله خير".

" إن شاء الله نعم".

نام "عماد" ليلتها باكرا، وفي الغد استيقظ مع الفجر، صلاّه وأكمل بالصّبح جماعة في المسجد، وحينما عاد إلى المنزل كانت أمّه قد حضّرت له فطور الصّباح، تناوله، وطلب منها أن تدعو له، ففعلت ودعت له بالتّوفيق.

كان يوم سبت، يعني يوم عطلة، أخذ القطار باتّجاه البلدة الرّيفيّة " الهضبة الخضراء"، السّاعة تشير إلى السّادسة ونصف صباحا، انطلق أخيرا بعد انتظار طويل، قرابة النّصف ساعة، في نفس "عماد" أمل كبير لا يفارقه، أمل في كسب معركة أخرى لكن من دون مساعدة أحد هاته المرّة.

القطار طرازه قديم نوعا ما، لا يلتهم سكّته كما تفعل القطارات الحديثة، ليس جائعا كفاية، لا تغريه السّرعة على ما يبدو، لكن في نفس الوقت وفّر ذلك للشّاب فرصة التمتّع بأجمل المناظر وأروعها من نافذته،

تلك الأراضي الخضراء المتّصلة، تحيّيه ذاهبة إلى المجهول، خلفها المرتفعات والمنخفضات، عليها قطعان الأغنام والماعز ترعى باطمئنان وسلام، فلاّحون يعتنون بأراضيهم، منهم من يسقي ومنهم من يغرس، السّماء زرقاء صافية، زادت جمال هاته اللّوحة الفنيّة، النّسيم البارد يدخل من الفراغات الصّغيرة للنّوافذ، مع رائحة التّراب والحشائش، عطر ناعم منعش تهديه الطّبيعة لمن فرّ إليها راغبًا في الرّاحة.

كما الرّضيع في المهد هزّه القطار، فغلبه النّعاس، ودون أن يدري غطّ في نوم عميق، بعد ساعتين كاملتين استيقظ، استيقظ مضطربًا غير مدرك أين هو وماذا يفعل في القطار، ضحك الشّيخ الذي كان قبالته في المقعد وقال:

" محطّة " المنارة"؟".

" كلاّ "الهضبة الخضراء" ".

" أنت محظوظ يا بنيّ، فهي الموالية، احرص على أن لا تغفُوَ مرّة ثانية".

تنفّس الصّعداء وردّ:

" الحمد لله، مشكور يا أبي، ظننت أنّني فوّت المحطّة".

" لو أوصيتني من قبل لكان أفضل".

" لا بأس، المهمّ أنّها الموالية".

" بالتّوفيق يا بنيّ".

" شكرا لك، ادعُ لنا بالتّوفيق يا أبي".

" وفّقك الله لما يحبّ ويرضى يا بنيّ".

أدرك الشّيخ أنّ هذا الشّاب في مهمّة، ويبدو عليه الحرص على إتمامها، لم يسأله عن التّفاصيل، لكنّه دعا له كما يدعو لأبنائه، فعلى وجهه بان الخير والصّلاح.

توقّف القطار في محطّة "الهضبة الخضراء"، نزل "عماد" بعد أن ودّع الشّيخ، تلك المحطّة غريبة، ليست كمثيلاتها في المدينة، وكأنّها جزء من الطّبيعة المحيطة، جدرانها من الخارج خضراء خضرة الأشجار والنّباتات، نوافذها شفّافة نقيّة نقاء المياه الرّيفيّة، تعلوها ساعة عملاقة قديمة، النّاس هنا هادئون، لا صخب ولا ضجيج رغم اجتماعهم هنا في المحطّة، حالما خرج منها قابله هذا المشهد البديع، جبال ارتدت بياضا وخضرة، شامخة تكاد تلامس أصابعها السّماء، تلك السّحب الخجولة تمرّ سريعًا وتختفي لتترك للنّاظر فسحة الإعجاب والتأمّل بهذا الأزرق الواسع، أينما تولّي وجهك تجد اللّون الأخضر بشتّى حالاته، الفاتح والقاتم، المائل إلى الأزرق والثّابت على أصله، عصافير تغرّد هنا وهناك، وبرودة تنعش الأجساد وتحيي الأرواح الخاملة.

انتظر في طرف الطّريق وسيلة نقل تقلّه إلى وجهته: " رأس الهضبة".

بعد مدّة طويلة، وسط طبيعة غنّاء خالية من أثر البشر الذين تفرّقوا سريعا وذهب كلّ واحد فيهم إلى شأنه، توقّفت سيّارة أجرة قديمة أمامه، فاستبشر خيرا وتقدّم من نافذة السّائق:

" السّلام عليكم يا عمّ، "رأس الهضبة" من فضلك".

" وعليكم السّلام، تفضّل نعم".

ركب بجانب السّائق وانطلقا في طريق ترابيّ هزّ السّيارة هزّا عنيفا كما الغربال، ومع بطئها زاد الأمر صعوبة في تخطّي هذا الجحيم.

" الطريق صعبة يا عمّ".

" نعم يا ولدي، منذ الاستقلال ونحن نطالب بتعبيد هذه الطّريق دون فائدة، المسؤولون هنا يتوالون علينا وكلّهم مرضى بالصّمم، يتوارثونه ذكرا عن آخر، حتّى لا أقول رجلا عن رجل".

" التنقّل في هذه المنطقة النّائيّة صعب بالنّسبة لكم أنتم سائقو سيّارات الأجرة، فما بالك بمن لا يملك سيّارة".

" أنا الوحيد في " الهضبة الخضراء" من يملك سيّارة أجرة يا ولدي، من حظّك أنّي أتيت باكرا اليوم، فأنا أسكن بعيدا نوعا ما عن المحطّة، ونادرا ما أمرّ من هنا تفاديا لهاته الطّريق، لكن سبحان الله قلت في نفسي فليكن يوما أكسب فيها الحسنات العظام، يوم أقلّ فيه النّاس ولو على حساب سيّارتي الحبيبة هاته، حرام أن نترك بعضنا وقت الحاجة، أليس كذلك؟".

في تلك اللّحظة استشعر الشّاب بالفعل معنى الإنسانيّة في هذا الشّيخ الطيّب، صورته مرآة عن نفسه، بشوش واجتماعيّ، من الواضح أنّه محبّ للنّاس، في ذاته قوّة خير كبيرة تتدفّق أنهارا وسواقٍ يرتوي منها الكلّ.

" صدقت يا أبي، بارك الله فيك".

" وفيك بارك الله يا ولدي".

أكملا الطّريق الوعر ذاك وخرجا من تلك الحفر والمطبّات إلى طريق مُستوٍ

نوعًا ما، حينها سأل السّائق "عمادًا" مرّة أخرى:

" من فضلك، أين بالذّات في "رأس الهضبة"؟".

" أبحث عن منزل منفرد، عائلة " الضّاوي"، بجانب الطّريق رقم اثنان مباشرة قبل بلديّة "رأس الهضبة" ".

ابتسم وردّ على الشّاب:

" عائلة "الضّاوي" معروفة هنا، سأوصلك إلى باب منزلهم لا تقلق".

فرح "عماد" بما اقترحه الشّيخ الطيّب، وشكره على خدمته، بعد قرابة العشرين دقيقة وصلا إلى المكان المطلوب.

" أنت الآن أمام منزل عائلة "الضّاوي".

" مشكور يا أبي، كم حقّك؟".

" مائة وخمسون دينارا".

" تفضّل".

" مشكور يا بنيّ، بالتّوفيق إن شاء الله".

" الشّكر لك".

خرج مسرعا من السّيارة بعد أن ودّع الشّيخ الذي أكمل طريقه، هو الآن أمام منزلها، دقّ قلبه دقًّا غير طبيعيّ، نبضاته تتسارع وكأنّها طبول تُقرع، جفّ ريقه واضطرب، لم يسعفه جمال الطّبيعة هنا وهندسة هذا المنزل الرّائع ذو الطّابع التّقليديّ، نسيَ الخطاب الذي حضّره ليلقيه على مسامع والديها، ارتبك كثيرا يبدو أنّه فقد السّيطرة على نفسه.

" اللّعنة ما بي؟ لماذا أرتعش هكذا؟".

استغفر وحاول تهدئة نفسه، تقدّم نحو الباب وطرقه، فتحت له " لمياء" أمّ "عفاف"، وكم كانت دهشتها كبيرة برؤيته، فرحت فرحة لم تسعها وقالت:

" "عماد"؟ أنت بالفعل "عماد"؟".

" نعم يا خالة أنا هو".

رحّبت به أيّما ترحيب وأدخلته، كان "كريم" هنا، نفس الفرحة البادية على وجه "لمياء" بدت عليه، جلس معهما في غرفة الضّيوف، وبعد إكرامه دخل "عماد" في الموضوع، السّبب الذي أتى به إلى "الهضبة الخضراء".

" لا بدّ وأنّكما تتساءلان لماذا أنا اليوم هنا عندكم، من الغريب أن آتي هكذا دون سابق إنذار، رغم أنّنا نتواصل مرّة على مرّة بالهاتف إلاّ أنّني لم أطلب الإذن قبل المجيء، فأعتذر".

" لا داع للاعتذار يا بنيّ، هذا البيت بيتك".

" مشكورة يا خالة".

" إذن يا ولدي، خيرا إن شاء الله؟ ".

" لا خيرًا بإذن الله".

تشجّع الشّاب وقرّر أن تكون هاته اللّحظة لحظة الحقيقة التي يواجه بها مخاوفه، إن تمكّن من تجاوز هذا الامتحان بنجاح، فما سيأتي بعده من مشاكل وعوائق ستكون بالتّأكيد سهلة بسيطة، انطلق لسانه بما أراد، وأفصح في كلمات قليلة عمّا نواه، تابعاه باهتمام، وبعد كلّ كلمة يزيد شغفهما بما يقول، إلى أن وصل إلى بيت القصيد وقالها صراحة.

" جئت أوّلا لآخذ رأيكما قبل القيام بخطوات أخرى، أريد ابنتكما "عفاف" لي، أطلب يدها منكما لتكون لي زوجة إن لم تتمّ خطبتها ولم تتزوّج بعد، بعد إذنكما بالطّبع".

أكمل كلامه وبلع ريقه، أحسّ بحرارة عالية اجتاحت جسده تلك اللّحظة، تصبّب عرقًا خجلا وخوفًا، سكت الجميع، صمت رهيب، لحظات انتظار وترقّب، رفع "عماد" بصره نحوهما فإذا بالأمّ باكية والأب مبتسم.

" ربطتنا علاقة طيّبة بعائلتك يا ولدي فصرنا جميعا كالجسد الواحد، نعرف أباك وأمّك، ونعرفك منذ الحادث الذي ألمّ بكما أنت وابنتي، لست بالغريب عنّا، ومن جهتي لن تجد ابنتي أفضل منك شابًّا يسترها ويحافظ عليها".

من هذا الكلام الذي سمعه استنتج أنّ "عفافًا" لازالت عزباء، لم يصدّق أنّ القدر اصطفى له هاته الفرصة بعد ثلاث سنوات غياب، فرح فرحة أنارت روحه وأبهجت نفسه، تلعثم فلم يستطع الكلام بعد الذي سمع.

" في الحقيقة يا بنيّ ثلاث سنوات مدّة ليست باليسيرة، ولا ندري ماذا طرأ من جديد عليك، فيما إذا كنت قادرا على تحمّل مسؤو ...".

قاطعه "عماد":

" عفوا يا عمّ، تلك السّنوات الثّلاث لم تكن سنوات غياب، منذ أن التقيت بابنتكما ونفسي مريدة لها، ربطتني علاقة بها لا يمكن تفسيرها بسهولة، غير أنّها كانت حاضرة معي منذ البداية، هذا القرب الذي أحسّ به نحوها ليس سرابًا، إنّه حقيقة، ثلاث سنوات كوّنت فيها نفسي وعملت جاهدا

لأكون قدر المقام، وها أنا اليوم أثبت لكما حسن نيّتي ورغبتي في جعلها زوجتي كما يفعل الرّجال الحقيقيّون".

اندهش "كريم" من قوله، يبدو واثقًا من نفسه، أعجبه ذلك منه فابتسم.

" ماذا أقول لك، تكفيني هاته النّظرة التي واجهتني بها، من جهتي أنا موافق، لكن بقي رأي ابنتي فيك، فلا يمكنني إجبارها عمّا تكره، أو منعها عمّا تحبّ إن كان ذلك في صالحها ونفعها".

" معك حقّ يا عمّ "كريم" ".

" إنّها هنا على كلّ حال، في مزرعة العائلة، لها بستان ورود صغير تعتني به، يمكنك أن تسألها عن رأيها فيك ونحن هنا ننتظر".

انقبض قلب الشّاب وجحظت عيناه، إنّها اللّحظة التي انتظرها، زادت نبضات قلبه تسارعا، لا سبيل آخر للوصول إلى المراد غير المواجهة، التّعبير عن المشاعر بصدق، إفراغ ما في المكنون للآخر، هذا الذي يوصل إلى الهدف المرجوّ.

نهضا فقام معهما، رافقاه إلى الخارج، الجهة الخلفيّة من المنزل، فتحت الأمّ الباب فإذا بأرض واسعة مسطّحة زراعيّة غاية في الرّوعة، وهناك في الزّاوية البعيدة جزء صغير تقف فيه الفتاة، إنّها عفاف" تسقي الورود وتعتني بها.

تصلّب في مكانه ولم يستطع القيام بخطوة إلى الأمام، لاحظ الأب ذلك فابتسم وشجّع الشّاب:

" أين شجاعتك التي أتيت بها؟ أتركتها في غرفة الضّيوف؟".

ضحكت الأم وأضافت:

" إنّها هناك، هيّا يا ولدي نحن هنا نراقب وندعو لك".

دون ردّ وبتوتّر وخوف كبيرين تقدّم "عماد" نحو " عفاف" التي لم تلحظه بعد، خطوات بطيئة حذرة حتّى اقتنصته عيناها، اعتدلت سريعا ورأت فيه، سقط مرشّ السّقي من يدها وغطّت فمها بيديها قائلة:

" "عماد"؟".

جمد في مكانه، لكنّه عزم على الاستمرار، استحثّ نفسه ودفعها دفعا حتّى تجيب، فخرق جدار الصّمت واستطاع أن يردّ:

" نعم ... "عماد" ".

دموع في عيني الجميلة تجمّعت، على وجنتيها الورديّتين تدفّقت، فرحة وسرورا برؤيته.

" وأخيرا أتيت".

" أتيت من أجلك".

ردّه عصر قلبها وكاد يوقفه، ابيضّت شفتاها وجحظت عيناها الزّرقاوين، اقترب أكثر منها وأضاف:

" أدري أنّنا التقينا في الماضي وكانت بيننا مواقف، غير أنّي لا أتذكّرها للأسف بسبب حادث وقع لي ففقدت جزءً من ذاكرتي، ومعها الذّكريات التي جمعتني معك".

أغلقت عيناها وابتسمت.

" لقد درست معي في الابتدائية، كنت تجلس بجانبي، على يساري، كنت كثير الحركة والشّغب، لكنّك كنت ذكيًّا فطنا، محطّ أنظار الجميع، أنا التي كنت خجولة أستحي من الكلام، دافعت عنّي عديد المرّات حينما ضايقني رفاقك، أعنتني كثيرا حينما صعُب عليّ العمل في جماعة، أعرتني أدواتك وكراريسك رغم خطّك الرّديء السيّئ، إلاّ انّك كنت الوحيد الذي شعر بحاجتي إلى الآخرين ولم أفصح، درسنا سويًّا في المتوسّطة، العام الأوّل فقط، لازلت أتذكّر كيف أنقذتني من الموت حينها، اليوم الذي انهار فيه سقف الرّواق وكنت هنا فدفعتني جانبا وأنت أصبت بسببي في يدك، كان سيسقط مباشرة على رأسي، لقد كنت لسنوات "ملاكي الحامي"، " بطلي المنقذ"، أثّرت فيّ عميقًا، سكنت نفسي وملأت روحي جملا وأحلاما، للأسف لم أمكث طويلا في المتوسّطة تلك، غيّرتها بسبب عمل أبي، كم حزنت لذلك، وربّما بعدها تعرّضت لهذا الحادث الذي ذكرته".

اندهش "عماد" لما سمعه، أحدث كلّ هذا دون أن يتذكّر؟

" لقد ضيّعت ذكريات لا تقدّر بثمن، ربطنا رابط منذ الصّغر، لهذا جمعنا القدر مرّة أخرى، فلا سبيل آخر إلاّ أن نلتقي ونتمّ ما بدأنا به لسنوات".

" ماذا تقصد؟" قالت متوتّرة.

" حينما جريت نحوي ودفعتني رغبة في إنقاذي من الشّاحنة التي صدمتنا نحن الاثنان، كنت على علم بمن أكون، بأنّي أنا "عماد" أليس

كذلك؟".

ردّت بهدوء:

" نعم".

" في الأيّام التي أخذتنا فيها الغيبوبة إلى العالم الثّاني، عشتِ معي الأحداث تلك وشاركتني فيها أليس كذلك؟ العملاقان؟ ملك الجزيرة؟ الشيّخ الحك ...".

قاطعته مُكملة:

" الشّيخ الحكيم، المختطفان، الكره، العُجب والإعجاب، الخوف وبعدها الملكة".

" تماما، شاركتني في الحلم واجتزنا كلّ المراحل مع بعض، كانت هناك فترات غبت فيها أنا لكنّي تابعتك".

" كذلك بالنّسبة لي، حينما اختطفني ملك الجزيرة، إحساس غريب غير مفهوم، شعرت بوجودك وقربك، شكّ خالطه يقين، إلى أن وصلت وحرّرتني".

" سواء في الحقيقة أو في الحلم، كنّا ولا زلنا مع بعض".

" رغم ويلات الزّمن، ووطأة الحوادث والمصائب، جمعنا القدر مرّة أخرى".

" استيقظت فأعلموني بخروجك، ذهبتِ دون وداع، أحسست أنّ الدّنيا أظلمت".

" انتظرت قدومك وصبرت ثلاث سنوات، وها أنت الآن تشجّعت وأتيت".

" ماذا تقصدين؟".

" خطبني الكثير من الشبّان ورفضت".

" ماذا؟".

" نعم، في أعماقي كنت متيقّنة من أنّك ستأتي، وأنّك تشعر بنفس ما أشعر به نحوك، لهذا رفضت الجميع وانتظرتك، لم يبعدني الزّمان والمكان عنك في الحقيقة".

فتح عينيه دهشة، تذكّر حينها ما أعطتهما الملكة بعد أن سكب عليها الماء الذي أعاد لها المشاعر والأحاسيس، شموع ثلاث مشتعلة، إنّها السّنين التي فرّقتهما، غير أنّ الأمل في الملاقاة مرّة أخرى كان قائما، لم تنطفئ الشّموع حتّى باختراقهما السّماء وانطلاقهما في الكون الفسيح، تمسّكا بهاته الشّموع ولم يتركاها، إلى أن غمرتهما الشّمس بنورها ودفئها، إلى أن عادا إلى هذا العالم.

" الشّموع تلك، كانت سنوات فراقنا، في نفس الوقت هي الجسر الذي لابدّ من اجتيازه حتّى يتحقّق حلمنا، بنيت نفسي وصحّحت أخطائي، تعذّبت ويئست مرّات، لكن أبدا لم أستسلم، بقيتِ هنا في القلب ساكنة وفي العقل راسخة".

خجلت واستحيت فطأطأت رأسها، استغلّ الشّاب الفرصة وصرّح:

" لن أضيّع مزيدا من الوقت، لن ألتفّ وأدور، نيّتي اليوم واضحة، ومشاعري اتّجاهك قويّة حقيقيّة، كنت محقّة، الكلّ كان محقًّا، من المستحيل أن نعيش دون مشاعر، أنا الذي رفضت وعاندت، أعترف بخطئي،

وأطلب منك الصّفح والغفران".

ردّت على استحياء:

" المهمّ أنّك هنا".

استجمع قواه لطلبه الأخير، أخذ نفسًا عميقا من القلب، من الرّوح ومن الجوارح كلّها ثمّ:

" إعجابي بك فاق كلّ تصوّر،بحثت روحي عن روحك، فهل تقبلين أن نجمعهما برابط الزّواج يا "عفاف"؟ أتقبلين بهذا الشّاب قبيح المنظر أن يكون زوجًا لك؟".

صمتت، نظرت فيه، دون كلمة، ذرفت مرّة أخرى دموعًا حارة منهمرة، دموع الفرحة والسّرور، دموع الوصول إلى المبتغى، دموع تحقّق الحلم البعيد، ابتسمت باكية، ضحكت وهي تشهق، اضطربت، تشتّتت، ثمّ جمعت قطعها في لحظة وردّت:

" كيف لا أقبل وأنت الذي أردتُه، الذي أريده، والذي أتمنّى أن يكون توأم روحي مدى الحياة".

الآن تحرّر، الآن فقط تحرّر، ضحك ملء فيه، قفز فرحا ونشوة، هي أمامه ترى فيه ودموع الفرح لم تتوقّف، شاكرة الله على هاته النّعمة.

اقترب أبواها منهما مدركين أنّ المحادثة هاته أفضت إلى ما يفرح القلب ويبهجه.

" إذن يا ابنتي، أنت موافقة؟".

" نعم يا أبي موافقة".

حضنت الأمّ ابنتها، وكذلك فعل الأب، رأى "عماد" هذا المشهد، ففهم معنى أن يكون الأب والأم سندا لولدهما أو ابنتهما في لحظات كهاته، في السرّاء والضرّاء، في السّعة والضّيق.

" تعال".

" نعم؟".

" تعال يا بنيّ، أنت منّا وفينا، ولدنا أنت ".

قالها "كريم" وذراعه مبسوطة لعناق "عماد"، لم يستطع الشّاب مقاومة دموعه، فسالت رغما عنه، اقترب منه فأخذه إليهم، في صورة للإنسانيّة والحبّ لا مثيل لها.

اليوم "يوم الوداع".

اليوم ودّع "عماد" أحزانه، ودّع شكوكه وريبته، ودّع مخاوفه.

اليوم انطلق كالطّير في سماء الدّنيا يجوبها بحريّة، بداية من هاته اللّحظة، سيعيش حياته بكلّ تفاصيلها، كاملة غير منقوصة، بأفراحها وأحزانها، بكلّ ما فيها.

إنّه القدر الذي قدّره الله، الامتحان الذي وضعك فيه، فمرّة غالب ومرّة مغلوب، لا مكان للمستسلم فيه، ولا مجال للهرب منه.

سيعيش كما عاش من قبله ومن سيأتون بعده، متقلّبين بين بحار المشاعر يحيونها بتفاصيلها، فإمّا حيّ أو ميّت، إمّا قادر أو عاجز، وبينها جميعا نفس تعانق وتحضن وعقل يربّي ويوجّه.

" سأعود المرّة المقبلة بوالديّ، حتّى نكمل ما بدأنا به إن شاء الله".

" إن شاء الله يا ولدي رافقتك السّلامة".

نظر في "عفاف" مبتسما وقال:

" قريبا ... قريبا إن شاء الله".

لم يسعها سوى أن ردّت تلك الابتسامة بأخرى ساحرة، فما أجمل أن تتنعّم بجمال إنسان اختارك عن رضا وقناعة، ليس لوسامتك أو شكلك، وإنّما اختار قلبك الصّافي ليكون قلبه، وروحك الطّاهرة لتكون روحه.

إنّه الشّعور الصّادق، الباقي بقاء الإنسانيّة ما دامت.

النّهايـــة

*****

المُحتَوَياتْ